من نوادر كتب التراث
في الوعظ الديني والإرشاد

رثاء الأموات

للنويري

مؤلف نهاية الإرب

تحقيق الدكتور

أحمد حجازي السقا

الناشر

مكتبة الإيمان بالمنصورة

بسم الله الرحمن الرحيم

قال الله تعالى :

﴿ إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب ﴾

١/٣/٢٠٠٣ م
١/١/١٤٢٤هـ

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الكتاب

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على خاتم النبيين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بخير وإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد

ففى نهاية الإرب للنويرى ـ رحمه الله ـ كلام فى رثاء الأموات . رأينا وضعه بنصه فى هذا الكتاب . وكتبنا مبحثا فى قيمة الحياة . فصار هذا الكتاب مكوناً من جزئين أحدهما لمؤلف معاصر ، والآخر لمؤلف قديم . والغرض من هذا الكتاب ؛ هو حثّ المسلمين على جعل الدنيا مزرعة للآخرة .

والله ولى التوفيق .

د / أحمد حجازى السقا

ميت طريف ـ دقهلية
٣٠ / ٧ / ١٤٢١
٢٨ / ٩ / ٢٠٠٠

هذا الكتـــاب

يجب على الإنسان أن يتعظ بالموتى ؛ فإنه يراهم قد خرجوا من الدنيا تاركين وراءهم كل شيء، قد أفنوا عمرهم في جمعه . ومنهم من كان همه جسده يغذيه من حلال أو من حرام ، ولا يهينه في صلوات أو مشقات جهاد في سبيل الله . وها هي أجسادهم قد وُضعت في التراب لتأكلها الديدان . أما الصابرون فإنهم امتهنوا أجسادهم في صلوات و مشقات جهاد ، مفضلين طاعة الله على طاعة الجسد. وفي هذا المعنى يقول عيسى عليه السلام : « ما أشقى الذين يحملون الآخرين للدفن ؛ ليعطوا أجسادهم طعاما للدود ، ولا يتعلمون الحق ، بل هم بعيدون عن ذلك بعدا عظيما حتى إنهم يعيشون هنا كأنهم خالدون . لأنهم يبنون بيوتا كبيرة ، ويشترون أملاكا كثيرة ، ويعيشون في الكبرياء »

قيمةُ الحيَاة

يجب على الإنسان أن يتعظ بالموتى ؛ فإنه يراهم قد خرجوا من الدنيا تاركين وراءهم كل شيء ، قد أفنوا عمرهم فى جمعه . ومنهم من كان همه جسده يغذيه من حلال أو من حرام ، ولا يهينه فى صلوات أو مشقات جهاد فى سبيل الله . وها هى أجسادهم قد وُضعت فى التراب لتأكلها الديدان . أما الصابرون فإنهم امتهنوا أجسادهم فى صلوات ومشقات جهاد ، مفضلين طاعة الله على طاعة الجسد . وفى هذا المعنى يقول عيسى عليه السلام : « ما أشقى الذين يحملون الآخرين للدفن ؛ ليعطوا أجسادهم طعاما للدود ، ولا يتعلمون الحق ، بل هم بعيدون عن ذلك بعدا عظيما حتى إنهم يعيشون هنا كأنهم خالدون . لأنهم يبنون بيوتا كبيرة ، ويشترون أملاكا كثيرة ، ويعيشون فى الكبرياء » ! . هـ

***

ورغائب الجسد : هى الأكل والشرب واللباس الفاخر والبيوت المشيدة والخيل المسومة ، والتمتع بالنساء ، وإنجاب الأولاد ، وكثرة الأموال . وما شابه ذلك . ليتمتع الجسد ، ويشعر المرء بالراحة . وهذه الرغائب تحث الإنسان على النفاق والكسل فى طاعة الله . بل تحثه على أن يسير فى حياته على طُرق المنفعة له ، حتى ولو كانت مخالفة للشريعة . فإن الشريعة تأمر أن يكون جمع المال من طرق الكسب الشريف . والمنفعة تأمر أن يكون جمع المال من كسب شريف أو غير شريف . لذلك ابتعد الأنبياء عن رغائب الجسد ، حتى لا يجمعوا المال من طرق محرمة مثل السرقة والربا وأكل أموال الناس بالباطل ، واقتربوا من رغائب الروح وهى الصلاة وحب العلم والجهاد ومجالسة الصالحين . فها هو محمد رسول الله يجاهد فى سبيل الله . والجهاد لا يعطى للجسد راحة . ومن ينظر إلى القبور يعلم ما هو الجسد . إنه صار

جثة هامدة ، تنبعث منها رائحة كريهة ، وتقترب منها الديدان ، ويبتعد عنها الإنسان .

وقد بين الله لنا فى القرآن الكريم أن الإنسان إذا ترك شهوة من شهوات الدنيا عن طيب نفس ؛ فإنه يأخذ بدلها فى الدار الآخرة . وعدّد لنا متع الدنيا وشهواتها ، ثم بين لنا الأفضل منها لنا فى الحياة الآخرة . وكل ذلك لئلا نتكالب على الدنيا ، ونجمع المال من حرام ، ونفسد فى الأرض . يقول الله تعالى : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ (١٤) قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ (١٥) ﴾ .

إنه قد بين متاع الحياة الدنيا ، ورغائب الجسد . ثم بين أن الخير والفضل فى الحياة الآخرة فى جنات تجرى من تحتها الأنهار .

ثم ذكر أوصاف العباد المستحقين للجنة فقال : ﴿ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا إِنَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ (١٦) الصَّابِرِينَ وَالصَّادِقِينَ وَالْقَانِتِينَ وَالْمُنفِقِينَ وَالْمُسْتَغْفِرِينَ بِالأَسْحَارِ (١٧) ﴾ .

وقد أمرنا الله عز وجل أن تكون أفكارنا من أجل محبته ، والعمل بشريعته . ولكن كثيرين جعلوا أفكارهم لمحبة أنفسهم وللمراءاة . وهؤلاء برياءهم ضيّعوا آخرتهم . يقول المسيح عيسى عليه السلام : « ليكن الفكر والكلام والعمل جميعا لمحبة الله ؛ لأنكم بهذا تجدون أمنا فى ذلك اليوم . الحق أقول لكم : إن كثيرين يغتسلون ويذهبون للصلاة ، وكثيرين يصومون ويتصدقون ، وكثيرين يطالعون ويبشرون الآخرين ، وعاقبتهم ممقوتة عند الله؛ لأنهم يطهرون الجسد لا القلب ، ويصرخون بالفم لا بالقلب . ويمتنعون عن اللحوم ويملأون أنفسهم بالخطايا . ويهبون الآخرين أشياء غير نافعة لهم

أنفسهم؛ ليظهروا بمظهر الصلاح . يطالعون ليعرفوا كيف يتكلمون ، لا ليعملوا . ينهون الآخرين عن الأشياء التى يفعلونها هم أنفسهم . وهكذا يدانون بألسنتهم. لعمر الله إن هؤلاء لا يعرفون الله بقلوبهم ؛ لأنهم لو عرفوه؛ لأحبوه .

ولما كان كل ما للإنسان هو هبة من الله ؛ كان عليه أن يصرف كل شىء فى محبة الله » .

***

وكيف يعرف الإنسان الفكر الجيد من الفكر الردىء ؟ إن الإنسان إذا أمسك بورقة من النقود . يقلّب فيها نظره ليعرف إن كانت صحيحة أم مزيفة . فلماذا لا يُعمل عقله فى ما يُلقى إليه من الأفكار ؛ ليقبل الفكر الصحيح ، ويترك الفكر الفاسد ؟ إن الفكر الصحيح إنما هو من الأنبياء الأطهار ، والفكر الفاسد إنما هو من الشيطان . وإذا وضع الإنسان الفكر الصحيح فى كفّة ، ووضع الفكر الفاسد فى الكفة الأخرى . وجعل صنجة الميزان محبة الله. فإن كفة الفكر الصحيح هى التى ترجح . ولا يصح للإنسان أن يقدم محبة نفسه على محبة الله . فإن من يفعل ذلك يشقى فى الحياة الدنيا ، وقد جاء فى الكتب : أن إبراهيم عليه السلام انشغل بحب ابنه إسماعيل قليلاً . وما كان الله يحب لو أن ينشغل عنه قليلاً أو كثيراً . ولذلك أمر الله بأن يذبح ابنه ليقتل المحبة الأثيمة فى قلبه . وهو أمر كان سيفعله ؛ لو أن السكين قد طاوعته.

ولهذا الانشغال عن الله الذى يَعْرِض للإنسان ؛ أمر الله بالتوبة والاستغفار فى اليوم كثيراً .وليس الغرض من التوبة هو الاستغفار باللسان فقط، لأن الكلام لم يحدث المعصية . حتى يكون الاستغفار بكلام . فالسرقة ـ مثلاً ـ لم تكن بكلام ، وإنما كانت باليد . وإنما الغرض من التوبة هو تحويل الجسد من حالة الشر إلى حالة الخير . فكما أن الجسد حال المعصية كانت كل أعضائه مشغولة بها ، كلذك فى حالة التوبة يجب أن يكون الجسد كله مشغولاً

بالله . فمن يضيع كيس نقوده . هل يدير عينيه فقط ليراه ؟ هل يمد يده فقط ليأخذه ؟ هل يتحدث بلسانه ليسأل عنه فقط ؟ كلا . وإنما يدير عينيه ، ويمد يده ، ويسأل عنه . ويلتفت بكل جسمه ، ويستعمل كل قوة فى نفسه ؛ ليجده. هكذا الإنسان فى حالة التوبة . فبدل الضحك الذى ضحكه وهو يفعل الشر ، ويستهزىء بالأخيار ، يكون البكاء . وبدل البطر يكون الصوم ، وبدل النوم يكون السهر فى الطاعة ، وبدل الكسل يكون العمل ، وبدل الشهوة تكون العفة ، وبدل الجشع تكون الصدقة ، والوقت الذى لا عمل له فيه يكون فيه صلاة وتهجّد . وبدل المسرة بالأموال المسروقة يكون النوح على المعصية ؛ لأنه بالمعصية قد فقد رحمة الله .

***

ويجب أن تكون التوبة لأجل محبة الله وحده . فالإنسان السارق لو قطعت يده فى حادثة من الحوادث . وأصبح عاجزاً عن السرقة ؛ فإنه إن امتنع عنها لا يكون امتناعه من أجل محبة الله ، بل من أجل عجزه . ومثل هذا لا يسمى تائباً .

ولو أن عبداً عند سيد ، وأساء إلى سيده ، فإن سيده سيمنع عنه الأجر، وعندئذ سيحزن العبد ، وهل سيحزن لأنه فقد الأجر أم لأنه أساء إلى سيده؟ إنه إن حزن على فقد الأجر ؛ فإنه لا يكون قد حزن على الإساءة .

وإذا علم سيده أنه حزن على الأجر ولم يحزن على الإساءة ؛ فإنه سيعطيه أجره ، ولكنه لن يغفر له ذنبه ، ولن يتركه فى صحبته . وسيطرده . وهكذا العاصى لله . إنه أساء بالمعصية إلى الله ؛ لأنه لا يحب الله . كما أن العبد الذى أساء إلى سيده ؛ هو أساء لأنه لا يحبه . ومن لا يحب الله ؛ فإنه لن يجد رحمة ؛ لأنه ليس عنده محبة لله ، بل يبغض خالقه .

***

ومن عادة الإنسان أنه يبكى على فقد ما يشتهى من الطيبات . فأولى

بالخاطئ أن يبكى على أنه بخطئه قد فقد رحمة الله خالقه . وإذا فعل فعلاً حسنا لا يقول فى نفسه : إن لى جزاء لابد منه ، وإنما يقول : إننى مهما أفعل فى رضا الله ؛ لا أستحق منه شيئاً على أعمالى ؛ وذلك لأننى فى يوم من الأيام أغضبته بالمعصية . وفى هذا اليوم نفسه كان يجب على أن أتقرب إليه بالطاعات . فإن كل ما عندى من مال وصحة إنما هو منه ، وهذا كله لا يُقدر ولا يوزن بطاعات .

***

والخاطئ لا يصح له أن يضحك فى حال خطئه ؛ لأنه يكون قد ارتكب إثمين . إثم الخطأ ، وإثم الاستهزاء بالله . كأنه يقول لله : أنت أمرتنى بأمور لن أفعلها ، وهددتنى بعقاب على المخالفة أنا لا أبالى به . ومثل ذلك مثل ملك تبنّى أحد عبيده ، وجعله سيداً على كل ما يملكه . فحدث بسعاية ماكر خبيث أن وقع هذا التعيس تحت غضب الملك . فأصابه شقاء عظيم . لا فى مقتنياته فقط ، بل احتقره وانتزع منه ما كان يربحه كل يوم من العمل . أتظنون أن مثل هذا الرجل يضحك مرة مّا ؟ .

فالملك : رمز لله عز وجل الذى جعل الناس أغنياء بما أعطاهم من فضله. والماكر الخبيث : هو الشيطان الذى تسبب فى غضب الله على الخاطئ. وعقاب الله للخاطئ هو فى أنه نزع منه الملك ، وحرمه من الانتفاع بما خلقه الله فى السموات وفى الأرض .

وهذا المحروم لا يقدر أن يضحك على ما حل به من سخط الله بسبب عصيانه . ومثل هذا الخاطئ كل إنسان من بنى آدم يخطئ ويستهزئ بالله . لأن الله قد فضل بنى آدم على كثير ممن خلق ، وسخر لهم ما فى السموات وما فى الأرض . وفوق ذلك كله قد وهبهم الجنة . فإذا هم أغضبوه بذهابهم وراء شهواتهم ؛ فإنهم يكونون تعساء .

يقول عيسى عليه السلام : « ويل للعالم ؛ لأنه سيحل به عذاب أبدى .

ما أتعسك أيها الجنس البشرى ؛ فإن الله قد اختارك ، واهباً إياك الجنة . ولكنك أيها التعيس سقطت تحت غضب الله بعمل الشيطان ، وطردت من الجنة ، وحكم عليك بالإقامة فى العالم النجس ، حيث تنال كل شىء بكدح. وكل عمل صالح لك ؛ يُحبط بتوالى ارتكاب الخطايا . والعالم يضحك ـ وهو مرتكب هذه الخطايا ـ والذى هو شر من ذلك : أن الخاطئ الأكبر ـ وهو الشيطان ـ يضحك أكثر من غيره . فسيكون كما قلتم ـ أيها التلاميذ ـ : إن الله يحكم بالموت الأبدى على الخاطئ الذى يضحك لخطاياه ، ولا يبكى عليها. إن بكاء الخاطئ يجب أن يكون كبكاء أب على ابن ، مشرف على الموت . ما أعظم جنون الإنسان الذى يبكى على الجسد الذى فارقته النَّفْس ، ولا يبكى على النفس التى فارقتها رحمة الله »

***

وليس البكاء على الخطيئة بالدموع هو المطلوب من الخاطئ الذى يريد التوبة . فإن كثيرين لا يقدرون على البكاء . وإنما معنى بكاء الخاطئ هو : أن هواه وشهواته وملذاته . كل ذلك يشعل فيه الخاطئ نار الأسى والحزن على الخطيئة . فنار الأسى تحرق الهوى . وهذا هو المطلوب لا الدموع فى حد ذاتها.

***

ولا يجب على الإنسان أن يبكى على ميت أو أن يبكى على شىء قد ضاع منه بغير إرادته ؛ لأن كل شىء ملك لله . فللإنسان أجل ، وفى الدنيا مصائب عبر الله عنها بقوله : ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي أَنفُسِكُمْ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مِّن قَبْلِ أَن نَّبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢)** ﴾ وليس للإنسان من ملك فى هذه الدنيا ، لأنه سيخرج منها كما دخل فيها . وسيترك ما خوله الله له وراء ظهره . وإذ ليس له من ملك فى الحياة الدنيا إلا عمله الذى سيقدم به على ربه ؛ فإنه يجب عليه أن يكون بكاءه على تقصيره فى العمل ، وعلى خطاياه التى ستبعده عن الله ، ومثل هذا مثل ملك أعطى

لخادمه رداءه ؛ ليحفظه . ثم طلبه منه بعد ذلك . أيحق للخادم أن يبكى على تسليم الرداء للملك ؟ إنما يحق له أن يبكى على خطيئته ؛ لأنه لا ملك له فى الدنيا إلا الخطيئة التى اكتسبها بإرادته .

***

وما هو الطريق الذى يؤدى إلى الخطيئة ؟

هو العين التى تنظر . فتنبه الهوى على الشهوة . ولولا نظر العين ، ما تحرك داعى الشهوة . والإنسان قد لا يقدر على المقاومة ؛ لضعف عزيمته . لذلك أمرنا الله بغض البصر فى قوله تعالى : ﴿ **قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا مِنْ أَبْصَارِهِمْ وَيَحْفَظُوا فُرُوجَهُمْ ذَلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَاتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَارِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُن** ﴾ .

وإذا كانت العين باعثة على الهوى . والهوى يقود إلى النار . والنار فيها إقامة دائمة . والدنيا مدتها قصيرة . وهو لا يقدر على ضبط نفسه ؛ لأنه لا يصلى ولا يصوم ؛ فخير للإنسان أن لا يكون بصيرا . لقوله تعالى : ﴿ **وَمَن كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلا** ﴾ وفى هذا المعنى يقول عيسى عليه السلام : « ويل للعالم من العثرات . لابد أن تأتى العثرات ؛ لأن العالم يقبم فى الإثم . ولكن ويل لذلك الإنسان الذى به تأتى العثرة . خير للإنسان أن يعلق فى عنقه حجر الرحى ، ويغرق فى لجة البحر من أن يعثر جاره . إن كانت عينك عثرة لك فاقلعها ؛ لأنه خير لك أن تدخل الجنة أعور من أن تدخل الجحيم ولك عينان ، وإن أعثرتك يدك أو رجلك فافعل بهما كذلك لأنه خير لك أن تدخل ملكوت السموات أعرج أو أقطع من أن تدخل الجحيم ولك يدان ورجلان . . . لأن من يعلمك هو عينك ، ومن يساعدك للعمل هى رجلك ، ومن يخدمك فى شىء مّا ؛ هو يدك . فمتى كانت أمثال هذه باعثا على الخطيئة ؛ فاتركها ؛ لأنه خير لك أن تدخل الجنة جاهلا فقيرا ، ذا أعمال قليلة من أن تدخل الجحيم بأعمال عظيمة وأنت حكيم غنى ؛ فاطرح

عنك كل ما يمنعك عن خدمة الله ، كما يطرح الإنسان كل ما يعيق بصره»

يريد أن يقول : لابد من وجود الشر فى العالم ؛ لأن الشيطان ما يزال حيا هو وذريته . والعاقل من يبتعد عن الشيطان حتى لا يحدث الشر فى العالم بواسطته ؛ لأن الله لن يترك حليف الشيطان بلا عقاب . ثم قال : أيهما خير للإنسان أن يستعمل يده فى طاعة الله أم يستعمل يده فى طاعة الشيطان ؟ وهكذا سائر الجوارح .

***

ولماذا يبكى الإنسان على خطاياه ؟

لأن الإنسان وهو تائب يعمل الصالحات يكون متصلا بالله . والمُتصل بالله يحس بالرضا والأمان والحماية من الأعداء . وإذا عصى ولم يعمل الصالحات يكون منفصلا عن الله . والمنفصل عن الله يحس بأن الله تركه لأعدائه ، وأعد له فى الآخرة عذاباً مهيناً . فلذلك يحق له أن يبكى على عمره . كما يبكى الطفل العاجز الصغير على فقد أباه ، وكيف يبكى على عمره من يحضر مجالس الطرب والولائم ؟ إنه لا يقدر على البكاء لأنها تحرضه على سرور ولكنه عند العقلاء سرور تعقبه ندامة . وعلى من يريد التوبة أن يحول مجالس الطرب إلى صوم إذا أحب أن تكون له سلطة على حواسه .

***

والإنسان مكون من جسد ونفْس وحس . ويسهل وجود الحياة فى الإنسان بدون الحس . فإن من يقع فى غيبوبة لا يحس . مع أن له جسدا فيه نفس ، والحس يذهب من الإنسان بسبب الخوف أو بسبب الغم الشديد الذى يعرض للنفس ، والجسد يعيش بالطعام ، والنفس تعيش بالعلم والحب . أما الحس فإنه يحس بلذة الطعام . فلذلك يغرى الجسد بتناوله من حلال أو من حرام ، والحس يخالف النفس فى أنه يتألم من حرمانه من اللذة . أيا كانت . وعلى الإنسان أن يعطى الحس لذات روحية بدل لذات جسدية .

وأهل الإيمان يوجهون الحس إلى الالتذاذ بالملذات الروحية . وأهل الكفر يوجهون الحس إلى الالتذاذ بالملذات الجسدية . فيكون الحس عند أهل الكفر إلههم بدل الله . فيعرضون عن العقل وعن شريعة الله ؛ فيصيرون مكروهين، ولا يعملون عملا صالحا .

***

وما هو الباعث على الخطيئة ؟

إن الباعث عليها هى لذات الجسد ، وهى الطعام الشهى والمال الحرام الذى يجلب الطعام . وهما يجلبان التمتع بالنساء ، وبماذا يحس الجسد باللذة؟ بالروح أم بالحس ؟ إنه يحس بها بالحس ، ولذلك لابد من إيجاد مضايق للحس ، وليس من مضايق له إلا حرمانه من اللذة ، والوسيلة للحرمان من اللذة هى الصوم ؛ لأن الصوم ضد الشهوة ، والخاطىء الذى يريد أن يتوب . يلزمه الحزن عن الخطايا ، ثم من بعد الحزن يلزمه عقاب نفسه بالصوم . فالحزن أولا، ثم يتبعه الصيام لتأديب الحس ، ومثل ذلك مثل من أكل طعاما ومرض منه . فإنه بعد تناوله يحزن على أنه أكله ، ثم يعرض عنه فلا يأكل منه ، وهكذا الخاطئ يجب عليه الحزن على الشهوات التى فصلته عن الله ، ثم يتبع الحزن الصوم لئلا يقع فى الشهوات مرة أخرى .

وإذا قدرنا أن الحس يمقت الصوم لأنه لا يريد أن يعاقب به ، نقدر أيهما أفضل للإنسان ، أن يصوم ليمحو أثر الخطايا من جسده أم يدخل فى نار جهنم بسبب البقاء فى الشهوات ؟ أو نقدر أيهما أفضل له . التمتع بنعيم الدنيا الذى سيفنى أو التمتع بنعيم الآخرة الذى هو خير وأبقى ؟

يقول عليه السلام : « إن القناعة بالقليل لنيل الكثير ؛ لخير من إطلاق العنان فى القليل مع الحرمان من كل شىء » .

***

ويقول عيسى عليه السلام فى أن التائب يجب عليه أن لا ينقض التوبة :

«ولكن ليكن التائب متيقظا ؛ لأن الشيطان يحاول أن يبطل كل عمل صالح . ويخص عمل التائب أكثر مما سواه ؛ لأن التائب قد عصاه ، وانقلب عليه عدوا عنيدا ، بعد أن كان عبدا أمينا . فلذلك يحاول الشيطان أن يحمله على عدم الصوم في حال من الأحوال بشبهة المرض . فإذا لم يغن هذا أغراه بالغلو في الصوم ، حتى ينتابه مرض . فيعيش بعد ذلك متنعما . فإذا لم يفلح في هذا، حاول أن يجعله يقصر صومه على ترك الطعام الجسدى ، حتى يكون مثله لا يأكل شيئا. ولكنه يترك الخطيئة على الدوام » .

وينصح عيسى عليه السلام التائب الصائم بعدم التكبر على الذى لا يصوم . وذلك لأن صومه كدواء لخطيئته . فإذا احتقر غيره ؛ فإنه يكون على خطيئة فوق خطيئته التى يصوم لمحوها . وينصحه أيضا بأن لا يأكل أطعمة شهية ؛ لأن الأطعمة الشهية تقوى الجسد . وإذا قوى الجسد فلت زمامه من التائب . يقول ما نصه : « لعمر الله إنه لممقوت أن يحرم المرء الجسد من الطعام ، ويملأ النفس كبرياء . محتقرا الذين لا يصومون ، وحاسبا نفسه أفضل منهم . قولوا لى : أيفاخر المريض بطعام الحمية الذى فرضه عليه الطبيب ، ويدعو الذين لا يقتصرون على طعام الحمية مجانين ؟ لا البتة . بل يحزن للمرض الذى اضطر بسببه إلى الاقتصار على طعام الحمية . إننى أقول لكم : إنه لا يجب على التائب أن يفاخر بصومه ويحتقر الذين لا يصومون ، بل يجب عليه أن يحزن للخطيئة التى يصوم لأجلها ، ولا يجب على التائب الذى يصوم أن يتناول طعاما شهيا ، بل يقتصر على الطعام الخشن . أفيعطى الإنسان طعاما شهيا للكلب الذى يعضّ والفرس الذى يرفس ؟ لا البتة . بل الأمر بالعكس » .

***

ويجب على الإنسان أن يهتم بسهر الجسد وبسهر النفس . وذلك : لأن الجسد يجب أن يكون متيقظا مع النفس لتكون صلاة المرء تامة غير ناقصة . فالجسد يركع ويسجد ، والنفس تتلو التسابيح وهى دارية بتلاوتها . ومن تكون

رأسه مثقلة بالنعاس ، ونفسه لا تدرى عن تلاوتها شيئا . يكون مثله مثل من يقرب الصلاة وهو سكران لا يعلم ما يقول . وعليه فإن صلاته هذه لا فائدة منها . وقد جاء عن هذا المعنى فى القرآن الكريم : ﴿ **لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ** ﴾ والجسد يشبه رجل الحياة ، والنفس تشبه رأس الحياة . ولا يصح لإنسان أن يفتخر على غيره بسهر الجسد . وهو قد نوّم النفس بنسيان الله وعقابه فى اليوم الآخر .

ومعنى سهر النفس : هو أن الإنسان فى حال صحوه يكون ذاكرا لله فى كل عمل يعمله ؛ لئلا يعمل عملا لا يرضيه ؛ فيستحق النار على هذا العمل. إذ لا يقبل الله من العمل إلا ما كان عن طيب خاطر ، وطيبا .

وافتخار الإنسان على غيره لا يكون بسهر الجسد . فذلك أمر يشترك فيه الناس جميعا لأنهم يستيقظون لأعمالهم . وإنما الافتخار يكون بسهر النفس حتى تكون الأعمال كلها مرضية لله .

يقول عيسى عليه السلام : « إن من يسهر بالجسد وينام بالنفس لمصاب بالجنون. وكما أن المرض الروحى أشد خطرا من الجسدى؛فشفاؤه أشد صعوبة. أفيفاخر إذاً تعيس كهذا بعدم النوم بالجسد الذى هو رجل الحياة ، بينما هو لا يرى شفاءه فى أنه ينام بالنفس التى هى رأس الحياة ؟ إن نوم النفس هو نسيان الله ، ودينونته الرهيبة . فالنفس التى تسهر إنما هى التى ترى الله فى كل شىء، وفى كل مكان ، وتشكر جلاله فى كل شىء وعلى كل شىء وفوق كل شىء ، عالمة أنها دائما فى كل دقيقة تنال نعمة ورحمة من الله » .

***

وهل يقدر الإنسان أن يتذكر الله على الدوام ؟

إن الذين تمرنوا على الاشتغال بالحجارة المستخرجة من المقالع ، تعودوا بالتمرن المستمر أن يضربوا بالآلات الحديدية وهم يتكالمون ولا ينظرون إليها . ومع ذلك لا يصيبون أيديهم . ولو أن الإنسان أراد أن يتذكر الله على الدوام

لقدر على ذلك بالصبر . لأن الماء يشق أقوى الصخور بقطرة واحدة يتكرر وقوعها عليها زمنا طويلا .

وإن الإنسان ينال فى كل وقت هبات ونعم من الله . أجلها وأعظمها النَّفَس الذى به يحيا . ولو أنه قطع عنه الهواء لحظة ؛ لمات فى الحال . ومن يغفل عن هذه النعمة، ويتمادى فى الغىّ، فإنه يكون مخطئا. ولما كان النفس من أجل النعم وأعظمها ؛ وجب على الإنسان أن يقول كلما يتنفس : الحمد لله .

ولكن الإنسان لا يبلغ إلى قول الحمد لله. بقوى بشرية، بل برحمة الله . والله إذا رأى الإنسان يشتهى بلوغ هذه الغاية ويعمل لها ؛ فإنه يعينه ويقويه .

***

وهل يوجد تلازم بين الصوم وسهر الحس حتى لا يعطى الحسّ للجسد لذات وشهوات ؟

يقول عيسى عليه السلام : « إن الصوم والسهر الروحى متلازمان . حتى إذا أبطل أحد السهر ؛ بطل الصوم توا ؛ لأن الإنسان بارتكاب الخطيئة يبطل صوم النفس ويغفل عن الله . وهكذا فإن السهر والصوم من حيث النفس لازمان دوما لنا ولسائر الناس ؛ لأنه لا يجوز لأحد أن يخطئ . أما صوم الجسد وسهره . فصدقونى أنهما غير ممكنين فى كل حين ، ولا لكل شخص ؛ لأنه يوجد مرضى وشيوخ وحبالى وقوم مقصورون على طعام الحمية وأطفال وغيرهم من أصحاب البنية الضعيفة . وكما أن كل أحد يلبس بحسب قياسه الخاص ، هكذا يجب عليه أن يختار صومه ؛ لأنه كما أن أثواب الطفل لا تصلح لرجل ابن ثلاثين سنة ، هكذا لا يصلح صوم أحد وسهره لآخر » .

***

ويوجد من يسهر بالجسد أكثر مما يلزم ثم ينام . ويوجد من ثقّل رأسه بالنعاس وهو غير نائم . وهذا النائم شبيه بمن ثقل رأسه بالنعاس وهو يقظان فى أن كلا منهما غير مستفيد بالوقت . لا فى الصلاة ، ولا فى الإصغاء إلى

كلام الشريعة. وكلا منهما مستهزئ بالله ؛ لأنه لص يسرق الوقت الذى يجب أن يعطيه لله . ويصرفه كما يريد . يصرف أفضل وقته فى المشاغل العالمية ، ويصرف أرداه فى الصلاة ومطالعة الشريعة . وتضييع الوقت فى غير فائدة .

يقول عيسى عليه السلام : « كان رجل يسقى أعداءه من إناء فيه أطيب خمره . إذ كانت الخمر على أجودها .ثم لما صارت الخمر حثالة ؛ سقى سيده. فماذا تظنون السيد يفعل بعبده ، عندما يعرف كل شيء والعبد أمامه ؟ حقا إنه ليضربه ويقتله بغيظ . عادلا . جريا على شرائع العالم . فماذا يفعل الله إذاً بالرجل الذى يصرف أفضل وقته فى المشاغل ، وأرداه فى الصلاة ومطالعة الشريعة ؟ ويل للعالم ؛ لأن قلبه مثقل بهذه الخطيئة ، وبما هو أعظم منها . لذلك لما قلت لكم : إنه يجب أن ينقلب الضحك بكاء ، والولائم صوما والرقاد سهرا ؛ جمعت فى كلمات ثلاث كل ما قد سمعتموه . وهو أنه يجب على المرء هنا على الأرض أن يبكى دواما ، وأن البكاء يجب أن يكون من القلب لأن الله تعالى خالقنا مستاء ، وأنه يجب عليكم أن تصوموا ؛ لكى تكون لكم سلطة على الحسّ ، وأن تسهروا لكى لا تخطئوا ، وإن البكاء الجسدى والصوم والسهر الجسديان يجب أن يكنّ بحسب بنية الأفراد » .

***

وإذا كان الإنسان كثير الكلام ؛ فإنه حتما سيخطئ فى كلام يقوله . وذلك لأنه لا يقدر أن يحكم عقله فى كل كلمة سيقولها . فالثرثرة ـ وهى كثرة الكلام ـ لأن العقل لا يحكمها ؛ لابد أن يظهر فيها خطأً مّا . ومن تعود على الثرثرة والمزاح والكلام الباطل . وأراد أن يتوب ؛ فليس أمامه إلا تحويل الثرثرة من كلام مع الناس إلى كلام مع الله . يحول الثرثرة إلى صلاة لله . فالصلاة دعاء ولجاجة فى طلب الخير من الله . وهى ضد الثرثرة التى هى لجاجة فى الحق وفى الباطل مع الناس . ولو أن الله لم يأمر بتحويل الثرثرة إلى صلاة ؛ لأمر العقل بتحويلها إلى صلاة للمنفعة التى تعود على الإنسان من ورائها .

وما هو الضرر الذى يعود على الإنسان من الكلام الباطل ؟

إنه يوهن البصيرة إلى حد لا يمكنها معه أن تكون مستعدة لقبول الحق . وذلك الرجل الذى تعود على الكلام الباطل ؛ أشر منه من يصرفُ وقته فى المزاح . لأنه إذا أراد أن يصلى ؛ ذكره الشيطان بالفكاهات المضحكة . فيضحك فى الصلاة بدل أن يندم على خطاياه .

***

والذين يمزحون أخف وطأة من الذين يغتابون جيرانهم ، ويغتاظون منهم. وهم جميعا صرفوا أوقاتهم فيما لا فائدة فيه . ولكن من يصرفون وقتهم فى إغاظة الجيران وفى ذكرهم بالسوء . هم أشد عقابا من الذين يصرفون أوقاتهم فى المزاح فقط . ويترتب على ذلك : أن من يخاف من الله يجب عليه أن يعطى كلامه للناس . بما قيمته ذهبا . ومعنى ذلك : أنه يجب على التائب أن يحسب كلامه كأنه ذهبا . إذ يكون الذهب عالى القيمة ؛ لا يصرفه الناس إلا على الأشياء الضرورية . وهكذا يكون التائب ؛ يُخرج كلامه من فمه للأشياء الضرورية ، كما يخرج الذهب للأشياء الضرورية . وكما لا يصرف أحد ذهبا على شىء يكون من ورائه ضرر بجسده ؛ كذلك لا ينبغى له أن يتكلم عن شىء قد يضر نفسه .

***

والبخل خطيئة . كما أن الثرثرة خطيئة . والتوبة من الثرثرة تكون بتحويلها إلى صلاة . والتوبة من البخل تكون بتحويل البخل إلى صدقة . والغرض من البخل : هو حب النفس والإنفاق عليها . فهل سيبقى الإنسان بمنجاة عن الموت إن هو صرف كل ماله على ملذاته الخاصة ؟ من المؤكد أنه ولد عريانا . ومتى مات ترك كل شىء . فمن أنفق عليه من الصغر وهو عاجز عن الكسب حتى صار قادراً عليه ؟

والبخيل بتحويله ماله إلى منفعة . يكون قد جعل نفسه سيداً على ماله. مع أنه يعرف أن المال مال الله وهو مستخلف فيه . وهو هبة من الله إليه .

وإذا جعل نفسه سيداً على ماله ؛ فإنه يكون قد نازع الله فى ملكه .

وسبب البخل هو : أن الإنسان المخطئ ببخله يكون بخطئه منفصلا عن الله . وإذا أحس المخطئ بانفصاله عن الله ؛ فإنه يحيط نفسه بملذات جسده. التى يحسبها خير للجسد . وكلما رأى نفسه محروما من الله ؛ ازداد قوة فى طلب الملذات . وإذا تاب البخيل ؛ فإنه يتغير من محب لنفسه إلى محب لغيره.

وما هى الوسيلة التى تدفعه إلى التغيير ؟ هى أن يعرف أن ما له نهاية لا ينبغى الحرص عليه . وما ليس له نهاية . ينبغى الحرص عليه . فمحبة المال لا ينبغى للمرء أن يحرص عليها ؛ لأن المال زائل . وأما محبة الله فهى التى يجب الحرص عليها لأن الله وحده هو الباقى . ومحبته لا تنال إلا بمحبة عباده والعطف عليهم .

***

وكم يجب أن تدوم مدة التوبة ؟

لا مدة لدوام التوبة . وذلك لأن الإنسان معرض دائماً لأن يخطئ ، ولأن يموت . ومن هو معرض للخطأ وللموت ؛ يلزمه أن يستمر فى مجاهدة النفس وعصيان الهوى .

وهل تكون الصدقة حبا فى الله أم حبا فى نعيم الجنة ؟

يجب على المرء أن يفعل الخير حبا فى الله نفسه ؛ لأن نعمه على المرء أكثر مما يفعله المرء شكرا على نعمة واحدة . وهى نعم لا تعد ولا تحصى من كثرتها . وإذا فعل المرء شيئا حسنا ليمدحه الناس فإن جزاءه من الناس لا مع الله ، ويكون بمراءات الناس مخطئا ؛ لأنه عمل للناس ، ولم يعمل لله . والتوبة من هذه الخطيئة تكون بنسيان المدح من الناس على الفعل ، وترضية النفس بأن يكون الجزاء من الله وحده .

وقد بالغ عيسى عليه السلام فى تحويل المدح من الناس إلى مدح من الله فقال : « يجب على المتصدق أن لا يعرّف اليد اليسرى بما تفعله اليد اليمنى حال إعطاء الصدقة للفقير . وحث على أن تكون الصدقة من أجود أنواع الخيرات ؛ لأن المتصدق لا يرجو من الله شيئا رديئا ، فى مقابل صدقته» .

يقول عيسى عليه السلام : «وليكن على انتباه. حتى لا تعرف اليد اليسرى ما تفعله اليد اليمنى ؛ لأن المرائين إذا تصدقوا ؛ يحبون أن ينظرهم ويمدحهم العالم . ولكن الحق أنهم مغرورون ؛ لأن من يشتغل لإنسان . فمنه يأخذ أجره . فإذا نال إنسان شيئا من الله ، وجب عليه أن يخدم الله . وتوخوا متى تصدقتم أن تحسبوا أنكم تعطون الله كل شىء حبا فى الله . فلا تبطئوا فى العطاء . وأعطوا خير ما عندكم حبا فى الله . قولوا لى : أتريدون أن تنالوا شيئا رديئا من الله ؟ لا البتة . أيها التراب والرماد . فكيف يكون عندكم إيمان إذا أعطيتم شيئا رديئا حبا فى الله . أن لا تعطوا شيئا خير من أن تعطوا شيئا رديئا ؛ لأن لكم فى عدم العطاء شيئا من المعذرة فى عرف العالم ، ولكن ما تكون معذرتكم فى إعطاء شىء لا قيمة له ، وإبقاء الأفضل لأنفسكم ؟»

***

وإذا قال المرء مفتخرا : أنا فعلت كذا وكذا من أنواع البر والخير ؛ فإنه يكون مخطئا ؛ لأن الخير كله من الله ، والله هو الفاعل على الحقيقة . وقد جعل الإنسان سبباً فى إيصال الخير لمن يريد الله له الخير . ووجه الخطأ : هو أنه نسب فعل الله إلى نفسه . ولكنه إن فعل فعلا رديئا يجب عليه أن يقول : أنا الفاعل وأنا المخطئ ؛ لأن الخير كله من الله . والناس هم الذين يبدلون نعمة الله كفرا . فالعنب مثلا من خلق الله . وهو خير . والناس هم الذين يحولونه إلى مسكر ، ومتناول المسكر يحدث شرورا فى العالم .

***

والكبرياء من الشيطان : كان بسبب افتخاره بأنه من روح ملتهب ، من النار . وأنه لهذا الشرف لا يسجد لمخلوق من طين ، هو آدم عليه السلام لذلك

تسبب كبرياؤه فى أنه لا يتوب من ذنب أبدا . أما بنو آدم فإنهم يخطئون ويتوبون . ولذلك يمكن إصلاح بنى آدم، ولا يمكن إصلاح بنى إبليس اللعين .

وهل يصح للإنسان أن يتكبر ؟ لا يصح له أن يتكبر لأنه مخلوق من ماء مهين ، ولأن كل ما فى الدنيا يقدر على إذلاله ؛ لضعفه . فإن كل الحيوانات من الأسد والكلب إلى الدودة الصغيرة ؛ تفتك بالإنسان . وكذلك الطيور من الصقر والبومة إلى البعوض والقمل ؛ تفتك بالإنسان ، ويفتك به الحر والبرد. بل إن الإنسان نفسه يخاف من أن يفتك به إنسان نظيره . وعقل الإنسان وقلبه لا ينكران ما يحيط به من البلايا . ولذلك لا يسوغان للإنسان أن يتكبر . فلماذا نظهر الكبر فى حياتنا ، ونتعامل به ؟

إن الله قد خلقنا من تراب ، وأن المرء لا يقدر أن يرد إليه روحه من بعد الموت . فمن تغطرس فإنه يكون منكرا أنه من تراب ، ويكون متشبها بالشيطان الذى بغطرسته ؛ رفض عون الله له .

ولماذا يحتقر الإنسان قريبه ؟ إنه مثل الإنسان الذى يحتقره ، مخلوق من تراب الأرض الذى يدوسه الناس بالأقدام . ولولا أن الله يحفظ الإنسان من الشيطان ، لكان شرا من الشيطان . فلا يفتخر إنسان بأنه أعلى من أخيه . لأن الله لو خلّى بين الإنسان وبين نفسه ؛ لافترسه الشيطان ، وجعله أقل شأنا ممن يتكبر عليه .

ومرض الجسد ، يشبه خطأ الجسد . فالأبرص مثلا مريض بالجسد ، والزانى مريض بالخطيئة . ومرض الجسد أقل قيمة من مرض الخطيئة . وكلاهما قابلان للشقاء . فالجسد يشفى بالأدوية التى يقدمها الطبيب ، والخطيئة قابلة للإزالة بالوعظ الذى يقدمه الواعظ . وإذا تكبر ولم يستجب لمداويه ؛ فإنه يهلك نفسه . وهذا كله يدل على أن الكبر يؤدى إلى الهلاك .

فكيف يتخلص الإنسان من الكبر ؟ يتخلص من الكبر بأن يحسب نفسه حقيرا أمام عظمة الله . وبأن يعترف بأن كل شىء يتمتع به فى الدنيا . إنما

يناله من يد الله ، وبأن يتخيل الله أمامه وهو يمنحه هذه النعم . ومثل ذلك مثل رجل فقير ، اعتاد الدخول فى بيت ملك ليوصّل إليه شيئا مّا . وفى يوم من الأيام أمره الملك أن يبقى فى البيت، ويأكل معه. فلما وضعت مائدة الطعام تقدم الفقير نحوها وهو هائب من الملك . ولم يطلب أن يجلس فى المحل الأرفع ، ولم يطلب أشهى الطعام، وجلس حيث أجلسه الخدم، ولم يتكلم من قبل أن يسأل ، ولم يحسب نفسه أكثر أهلية للجلوس إلى المائدة من الآخرين. ومثل هذا الفقير لا يجسر أن يرفع عينيه؛ ليأكل بجراءة. وإذا تناول الملك قطعة صغيرة من الطعام ؛ يخال العالم هبط على رأسه؛ لعظم المنّة التى أحسن بها الملك إليه . ويتمنى الفقير بعد هذا الفضل أن يخدم الملك طول حياته .

فما بال العالم يتكبر على الله وهم يأكلون كل يوم على مائدته . أَوْلى بهم أن يَكونوا متواضعين لله كتواضع الفقير على مائدة الملك. ولا يعترض أحد بقوله : لماذا فعل هذا ؟ أو لماذا قيل هذا فى العالم ؟ بل يجب عليه أن يحسب نفسه ـ كما هو فى الحقيقة ـ غير أهل أن يقف فى العالم على مائدة الله.

***

وهل هذه الدنيا دار البقاء ؟ إنها لو كانت دار البقاء ؛ لحق لأغنياء العالم أن يتوسعوا فى زيادة الغنى ، ولحق لأهل الكبر والغطرسة أن يزدادوا كبرياء وغطرسة . ولحق لطلاب الملذات والشهوات أن ينالوا من الملذات والشهوات ما لا نهاية له . ولحق لهم إن كان المال يأتى من عبادتهم لغير الله أن يعبدوا غير الله إلها . ولكن الدنيا لله وليست دار البقاء . وإنما هى طريق يوصل إلى دار البقاء. هى معبر مليء بالأشواك إلى دار البقاء . ومن يسلك فى طريق مليء بالأشواك؛ يلزمه أن يتخفف فى الأحمال الثقيلة العسرة الحمل . وأن لا يتخذ فى الطريق قصوراً ليستريح فيها من آلام السفر .

ومَثَلُ هذه الدنيا مثل الطريق الموصل إلى دار البقاء . ويجب على السائر فى طريق؛ أن يعرف مقصده، وأن يعرف أن الطريق وسيلة لمقصده. ويجب عليه أيضا أن يميز بين الطريق المليء بالأشواك ، وبين دار البقاء التى هى مقصده .

وإذا كان الطريق مليئا بالأشواك ، وباللصوص وبالقتلة . ويريد أن يبقى فيه مع هذا الخطر ؛ فإنه يكون إنسانا تعيسا ؛ لأن البقاء فيه شر له ، والإسراع لتركه فيه خير له .

وهذه الدنيا هى الطريق الموصل إلى دار البقاء . وفيها من أنواع الخطر ما لا يعد ولا يحصى . وذلك لأننا طردنا إليها من جنة الفردوس بسبب الخطيئة. فالجنة هى دار البقاء . والدنيا دار النفى التى نفينا إليها بسبب الخطيئة . ومن كان منفيا فى مكان ؛ فإنه يرغب فى العودة إلى وطنه . ولا يمكن أن يعود إلى وطنه إلا وهو مبرأ من الخطايا ؛ وذلك لأنه نفى بسبب الخطايا ؛ فكيف يرجع بالخطايا ؟

ولكن الناس قد غفلوا عن هذا المعنى ، وظنوا أنهم باقون فى هذه الحياة بقاء مؤبدا . ومن يفكر منهم فى الموت ؛ لا يفسره تفسيرا حسنا . ولابد من موت . وهو إما موت ثمين ، أو موت رخيص . والفرق بينهما : أن الإنسان الذى يعرف أن الدنيا زائلة . يعرف كيف يموت موتا ثمينا . وذلك بأن يحب الله ويعمل بوصاياه . فإذا حضره الموت ؛ فإنه يكون قد باع روحه لله بثمن ثمين . وهو الجنة . والذى لا يحب الله ولا يعمل بوصاياه ؛ فإنه إذا حضره الموت يكون قد باع روحه لله بثمن رخيص . وهو النار .

يقول عيسى عليه السلام : « قولوا لى : كيف يولد الإنسان متى يولد ؟ حقا إنه يولد عريانا . وأى جدوى له متى وسد ميتا تحت الثرى ؟ ليس سوى خرقة يُلف بها . وهذا هو الجزاء الذى يعطيه إياه العالم . فإذا كان يجب فى كل عمل أن تكون الوسيلة على نسبة من البداية ؛ ليمكن إيصال العمل إلى نهاية حسنة . فما عسى أن تكون نهاية الإنسان الذى يشتهى الثروة العالمية ؟ إنه ليموت كما يقول داود نبى الله : « إن الخاطىء ليموتن شر ميتة » .

إذا حاول خياط أن يدخل جذوعا فى سم إبرة بدلا من خيط . فما يكون مصير عمله ؟ إنه ليحاول عبثا ، وجيرانه يزدرون به . فالإنسان لا يرى أنه

فاعل هذا على الدوام وهو يجمع الخيرات الأرضية ؛ لأن الموت هو الإبرة التى لا يمكن إدخال جذوع الخيرات الأرضية فى سمها . ومع ذلك فهو بجنونه يحاول على الدوام أن يفلح فى عمله ، ولكن عبثا .

ومن لا يصدق كلامى هذا ؛ فليتفرس فى القبور ؛ لأنه هناك يجد الحق فمتى أراد أن يبرز فى الحكمة على من سواه فى خوف الله؛ فليطالع كتاب القبر ؛لأنه هناك يجد التعليم الحقيقى لخلاصه. فإنه متى رأى أن جسد الإنسان يحفظ ؛ ليكون طعاما للديدان ؛ تعلم أن يحذر العالم والجسد والحس.

قولوا لى : إذا كان هنالك طريق . على حال يكون إذا سار معها المرء فى الوسط ، سار آمنا . فإذا سار على الجانبين ؛ شج رأسه . فماذا تقولون إذا رأيتم الناس يختصمون ويتبارون ؛ ليكونوا أقرب إلى الجانبين ، ويقتلوا أنفسهم؟ ما أشد ما يكون عجبكم . حقا إنكم تقولون : إنهم لمعتوهون ومجانين ، وإنهم إذا لم يكونوا مجانين فإنما هم يائسون » .

***

وكان علماء بنى إسرائيل يتكبرون على المخطئين ، ويأنفون من مخالطتهم ؛ فخطأهم عيسى عليه السلام على تكبرهم وأنفتهم ووضح لهم أن مخالطة العاصى لوعظه ونصحه ؛ تحمله على التوبة ، وأن الابتعاد عنه يزيده عصيانا وخطأ . وضرب لهم مثلا بالطبيب والمريض والصحيح . فقال : إن مثل العالم كمثل الطبيب . ومثل المخطىء كمثل المريض ، ومثل التائب كمثل الصحيح . فمن منهما يحتاج إلى الطبيب ؟ يقول عيسى عليه السلام : « لعمر الله الذى تقف نفسى فى حضرته : إن الله يرسل أنبياءه وخدامه إلى العالم ليتوب الخطاة ، ولا يرسلهم لأجل الأبرار ؛ لأنه ليس بهم حاجة إلى التوبة ، كما أنه لا حاجة بمن كان نظيفا إلى الحمام » .

***

والله تعالى يفرح بتوبة التائب ؛ لأن التائب قد ترك الشيطان وأقبل على

الله . وقد بين ذلك عيسى عليه السلام بمثل . فقال :

« كان لأب ابنان . فقال أصغرهما : يا أبت أعطنى نصيبى من المال . فأعطاه أبوه إياه . فلما أخذ نصيبه انصرف وذهب إلى كورة بعيدة حيث بذر كل ماله على الزانيات بإسراف . فحدث بعد ذلك جوع شديد فى تلك الكورة، وحتى أن الرجل التعيس ذهب ليخدم أحد الأهالى ؛ فجعله راعيا للخنازير فى ملكه . وكان وهو يرعاها ؛ يخفف جوعه بأكل ثمر البلّوط مع الخنازير . ولكنه لما رجع إلى نفسه قال : كم فى بيت أبى من فى سعة عيش ، وأنا أهلك هنا جوعا ؟ لذلك فلأقم ولأذهب إلى أبى وأقل له : يا أبت أخطأت فى السماء إليك ؛ فاجعلنى كأحد خدمك .

فذهب المسكين . وحدث أن أباه رآه قادما من بعيد . فتحنن عليه . فذهب لملاقاته . ولما وصل إليه عانقه وقبّله . فانحنى الابن أمام أبيه قائلا : يا أبت لقد أخطأت فى السماء إليك ؛ فاجعلنى كأحد خدمك ؛ لأنى لست مستحقا أن أدعى ابنك . أجاب الأب : لا تقل يا بنى هكذا . فإنك ابنى ، ولا أسمح أن تكون لى عبدا . ثم دعا خدمه وقال : أخرجوا الحلل وألبسوا ابنى إياها وأعطوه سراويل جديدة . واجعلوا الخاتم فى إصبعه ، واذبحوا حالا العجل المسمَّن ؛ فيطرب ؛ لأن ابنى هذا كان ميتا ؛ فعاش ، وكان ضالا فهدى .

وبينما كانوا يطربون فى البيت ، إذا بالبكر جاء إلى البيت . فلما سمعهم يطربون فى الداخل ، تعجب ، فدعا أحد الخدم وسأله لم كانوا فى مثل هذا الطرب ؟ أجاب الخادم : لقد جاء أخوك فذبح له أبوك العجل المسمن، وهم فى طرب . فلما سمع البكر هذا تغيظ تغيظا شديدا ، ولم يدخل البيت .

فخرج أبوه إليه ، وقال له : يا بنى لقد جاء أخوك ؛ فتعال إذاً وافرح معه . أجاب الابن بغيظ : لقد خدمتك خير خدمة ؛ فلم تعطنى قط حَمَلا ؛

لأفرح مع أصدقائى . ولكن لما جاء هذا الخسيس الذى انصرف عنك مبذرا نصيبه كله على الزانيات ؛ ذبحت له العجل . أجاب الأب : يا بنى أنت معى فى كل حين . وكل مالى فهو لك ، ولكن هذا كان ميتا فعاش ، وكان ضالا فوجد . فازداد الكبير غضبا ، وقال : اذهب وفز ؛ فإنى لا آكل على مائدة زناة . وانصرف عن أبيه دون أن يأخذ قطعة واحدة من النقود .

ثم قال يسوع : لعمر الله . هكذا يكون فرح بين ملائكة الله بخاطئ واحد يتوب » .

***

وفرق كبير بين الذى لا يُغْفَر وبين الذى يُغْفَر :

فإن العالم من صنع الله وحده . وإن المجرمين قد عبدوا غيره . فكأنهم قالوا : إن ما صنعه الله لم يصنعه ، وأن الذين لم يصنعوا هم الذين صنعوا . وعلى قولهم هذا يكون الذين لم يصنعوا قد سرقوا ما صنعه الله ، ونسبوه إلى أنفسهم ، وجردوا الله من صنعته ، ولم يعترفوا به إلهاً . وهذه خطيئة لا تغفر أبدا . و أما الذى يغفر من الخطايا ، فهو ما دون ذلك من الزنا والقذف والتهاون فى الأعمال الصالحة وما شاكل ذلك . وغفران الإشراك بالله لا يمكن أن يكون إلا إذ رُد ما أخذ من الله ظلما ، بانتهاء وجود الشركاء فى العالم .

وقد أمر الله بأن لا يسرق قريب قريبه ، فى قوله : « لا تقتل . لا تزن. لا تسرق . لا تشهد على قريبك شهادة زور » فلو أن إنسانا أضاع وقته فى العبث ، فإنه يكون سارقا للوقت الذى جعله الله من أجل طاعته ويكون قد سلّمه إلى الشيطان . وإذا قتل إنسان نفسا بغير حق ؛ فإنه يكون قد شبه نفسه بالله الذى يحيى ويميت ، وإذا اشتهى امرأة ليزنى بها ؛ فإنه يكون قد استبدل حب الله بحب نفسه . فليست السرقة سرقة مال الغير فقط ، وإنما هى سرقة المال وسرقة ما يختص بالإنسان من جهده . ونسبته إلى غيره .

ولكن الشريعة تعطى عقابا لسارق المال ، وللزانى وللقاتل . ولكنها لم

تعط عقابا للنمام والمغتاب ، ومضيع الوقت فى اللهو . فهل الذين لا عقاب لهم فى الشريعة بمنجى من العقاب ؟ لا . لا البتة ؛ فإن الله يرسل عليهم القلق والخوف والجوع . عقابا لهم . والدليل على ذلك : أن بنى إسرائيل لما أمرهم موسى عليه السلام بدخول الأرض المقدسة ولم يسمعوا له ؛ عاقبهم الله بالتـيه فى الأرض أربعين سنة . وقتلت الأفـاعى من العصـاة نحو سبـعين ألفـا .

يقول عيسى عليه السلام : « إن كل المخلوقات خاصة بالخالق ، حتى أنه لا يحق لشىء أن يدعى شيئا . وعليه . فإن النفس والحس والجسد والوقت والمال جميعها ملك لله . فإذا لم يقبلها الإنسان كما يريد الله ؛ أصبح لصا ، وكذلك إذا صرفها مخالفا لما يريده الله ؛ فهو أيضا لص .لذلك أقول لكم : لعمر الله الذى تقف نفسى فى حضرته ؛ إنكم عندما تسوفون قائلين : سأفعل غدا كذا ، سأقول كذا . سأذهب إلى الموضع الفلانى . دون أن تقولوا : إن شاء الله . فأنتم لصوص . وتكونون أعظم لصوصية إذا صرفتم أفضل وقتكم فى مرضاة أنفسكم دون مرضاة الله ، بل تصرفون أرداه فى خدمة الله ، لأنتم إذا بالحق لصوص . كل من يرتكب الخطيئة مهما كان زيّه ؛ فهو لص ، لأنه يسرق النفس والوقت وحياته التى يجب أن تخدم الله ، ويعطيها للشيطان عدو الله . فالرجل الذى له شرف وحياة ومال إذا سُرقت أمواله ؛ شُنق السارق . وإذا أُخذت حياته ؛ قُطع رأس القاتل . وهو عدل ؛ لأن الله أمر بذلك . ولكن متى أخذ شرف قريب فلماذا لا يُصلب السارق ؟ آلمال أفضل من الشرف؟ آأمر الله مثلا أن يقاص بأخذ المال ، ومن يأخذ الحياة مع المال ؛ يُقاص ، ولكن من يأخذ الشرف ؛ يُسرّح ؟ لا لا البتة ؛ لأن آباءنا بسبب تذمرهم لم يدخلوا أرض الموعد ، بل أبناؤهم . ولهذه الخطيئة قتلت الأفاعى نحو سبعين ألفا من شعبنا .

لعمر الله الذى تقف نفسى فى حضرته : إن من يسرق الشرف ؛ يستحق عقوبة أعظم من أن يسرق رجلا . ماله وحياته . ومن يُصغى إلى المتذمر ؛

فهو مذنب أيضا ؛ لأن أحدهما يقبّل الشيطان لسانه ، والآخر أذنيه » .

***

ويوجد فرق بين الواقع فى غيبوبة ، وبين الجسد الذى انفصلت عنه الروح بالموت . فالواقع فى غيبوبة وإن كان شبيها بالميت ؛ ينتظر عودة الحس ؛ ليحيا . والميت لا ينتظر عودة الحس ؛ ليحيا . وإنما ينتظر عودة الروح فى الدار الآخرة . وحياتنا الحاضرة إن كانت فى طاعة الله ؛ فهى حياة ؛ لأن الطائع متصل بالله الحى إلى الأبد . وإن كانت فى معصية الله ؛ فإننا فى موت؛ لأن العاصى منفصل عن الله بالمعصية . والمعصية موت ؛ لأن البعد عن الله موت . وسواء أمات الإنسان ودخل القبر أم بقى على قيد الحياة عاصيا . فإن المصير واحد . طال العمر أم قصر .

والموت الطبيعى حتم على كل إنسان ؛ لأن الله أراد ذلك ؛ ليرجع إلى وطنه الأول إن كان طائعا . لذلك لا يحق لأحد أن يبكى على ميت طائع ؛ لأنه ترك الطريق الشائك الموصل إلى الجنة ودخلها . وإنما يحق البكاء على المخطىء . سواء أكان حيا أو كان قد مات. لأن المخطىء فى حال حياته كان مع الشيطان ولم يكن مع الله. ولأنه إذا مات يكون سائرا إلى جهنم، وباقيا فيها .

يقول عيسى عليه السلام : « إن الموت الحاضر ليس بموت ، بل نهاية موت طويل . كما أن الجسد متى انفصل عن الحسّ فى غيبوبة ؛ فليس له ميزة على الميت . والمدفون ـ وإن كانت فيه النَّفْس ـ سوى أن المدفون ينتظر الله ليقيمه أيضا، والفاقد الشعور ينتظر عودة الحسّ . فانظروا إذاً الحياة الحاضرة التى هى موت . إذ لا شعور لها بالله .

من يؤمن بى لا يموت أبديا ؛ لأنهم بواسطة كلمتى يعرفون الله فيهم ، ولذلك يتممون خلاصهم . ما الموت سوى عمل تعمله الطبيعة بأمر الله ، كما لو كان أحد ممسكا عصفورا مربوطا ، وأمسك الخيط فى يده . فإذا أراد الرأس انفلات العصفور ، فماذا يفعل ؟ من المؤكد أنه بالطبع يأمر اليد بالانفتاح ؛

فينفلت العصفور تواً . إن نفْسنا ما لبث الإنسان تحت حماية الله . هى كما يقول النبى داود : كعصفور أفلت من شرك الصياد . وحياتنا كخيط تربط فيه النفس إلى جسد الإنسان وحسّه . فمتى أراد الله ، وأمر الطبيعة أن تنفتح ؛ انتهت الحياة وانفلتت النفس إلى أيدى الملائكة الذين عينهم الله لقبض النفوس.

لذلك لا يجب على الأصدقاء أن يبكوا متى مات صدّيق ؛ لأن إلهنا أراد ذلك . بل ليبك بدون انقطاع من أخطأ ؛ لأن النفس تموت إذ تنفصل عن الله. فإذا كان الجسد . بدون اتحاده مع النفس (يهلك هلاكا) هائلا ؛ فإن النفس تكون أشد هولا بدون اتحادها مع الله،الذى يجملها ويحييها بنعمته ورحمته »

وكان المسيح عيسى عليه السلام قد أحيا ميتا اسمه لَعَازَر . ولما أحياه وسمعه يقول : « لذلك لا يجب على الأصدقاء أن يبكوا متى مات صدّيق » قال له : « يا سيد هذا البيت لله خالقى ، مع كل ما أعطى لعهدتى لأجل خدمة الفقراء. فإذا كنت فقيرا ، وكان لك عدد كثير من التلاميذ ؛ تعال واسكن هنا متى شئت . فإن خادم الله يخدمك كما يجب ؛ حبا فى الله .

ولما سمع يسوع هذا ؛ سُرّ ، وقال : انظروا الآن . ما أطيب الموت . إن لعازر مات مرة فقط ، وقد تعلم تعليما لا يعرفه أحكم البشر . فى العالم الذين شاخوا بين الكتب . ياليت كل إنسان يموت مرة فقط ، ويعود للعالم مثل لعازر ؛ ليتعلموا كيف يحيون » .

***

وكما يجب على الإنسان أن يدفع الصدقات للفقراء والمساكين ؛ يجب عليه أيضا أن يصرف أوقاته فى تعليم الشريعة ، والوعظ بها ؛ لأنه كما أن دفع المال يحيى الفقير والمسكين ،كذلك وعظ الواعظين يحمل النفوس على التوبة والبعد عن الإثم . والإثم موت ، والتوبة حياة . فيكون الواعظ بوعظه قد

أحيا موتى ، كما أن المتصدق بماله قد أحيا نفسا كادت أن تموت من الجوع .

والتصدق بالوعظ على الخاطئ أحسن عند الله من التصدق على الفقير بالمال . يوضح ذلك : أن الفقير الذى مات من الجوع ، مساوى للخاطئ فى الموت إذ كل منهما قد انفصل عن الحياة . هذا بروحه ، وهذا بخطئه . ولا يقدر أحد بمال أن يحيى ميتا ، ولكنه بوعظه يقدر ان يحمل خاطئا على التوبة ويرده بالتوبة إلى الحياة . ويترتب على ذلك أن من له قدرة على مساعدة فقير ، ثم لم يساعده حتى مات الفقير جوعا ؛ فهو قاتل . ولكن القاتل الأكبر هو من يقدر بكلمة الله على تحويل الخاطئ للتوبة ولم يحوله .

***

ومنظر دفن الميت . يزيل الخطيئة من قلوب المخطئين . وذلك لأنهم يرون بأعينهم أن الميت قد ترك وراءه كل شيء قد تعب فى الحصول عليه بغير حق . ومن يعتبر بمنظر الدفن ؛ فإنه يكون قد أرضى الله بانتفاعه بعقله . ومن لا يعتبر به فإنه لا يكون منتفعا بالعقل الذى وهبه الله للإنسان كأنه يقول لله : لا أريد منك شيئا . وهو بهذا يستحق أن يحل عليه غضب الله .

ولو فرضنا وجود ميت قد حيى ، ووجود حى لم يمت بعد . وفرضنا كلا منهما واعظا . فإن الميت الذى حيى ؛ سيعلم كيف يموت المرء ميتة حسنة . وأما الذى لم يذق الموت بعد ؛ فإنه سيعلم كيف يعيش المرء فى هذه الحياة عيشة حسنة .

ومن المؤكد أن الله سيعطى للمرء أجرا على ما عمل فى الدنيا من الأعمال الصالحة . وقد سماه الله أجرا . لأجل ان يتعلم الناس من الله إعطاء الأجير حقه ، قبل أن يجف عرقه . ولا يحسن بالمرء إذا عمل خيراً أن يقول : لى أجر عند الله . على هذا العمل . وإنما يقول : لولا أن الله هدانى لما عملت خيرا ، ولما استحققت شيئا . وإذا أعطانى الله ؛ فإنما هو يعطينى هبة وفضلا . لا عطاء هو أجر . فإن نعمة واحدة من نعمه لا يقدر الإنسان على

دفع أجرها . وهى عنده من الله بدون مقابل . وإذا فعل الله بقريبه خيرا ؛ فليقل : إن قريبى يستأهل الخير الذى وهبه الله إياه . وإذا فعل الله به خيرا فليقل : هذا من فضل ربى ، مع أنى لا أستأهل هذا الخير .

***

والواجب على الخاطئ إذا نزل به العقاب ؛ أن يبكى على أنه أهان الله بتكبره عليه ، لا على أن الدمار نازل به . فإنه إذا بكى على أن الدمار نازل به؛ يبكى على فقده لوسائل عبثه ولهوه . وفى هذه الحالة يزيده الله من العذاب . وإذا بكى على أنه أهان الله وتكبر عليه ، ففى هذه الحالة يخفف عنه العذاب .

***

وليعلم الناس جميعا أنهم من مادة واحدة . وهم متشابهون فى النوع والصورة والتناسل . وفى كل إنسان منهم عقل . لابد له من محرك خارجى . إما ملاك من الملائكة ، وإما شيطان من الشياطين . ومثل ذلك مثل الثوب الذى يلبسه إنسان ، ويخلعه فيلبسه آخر . فالثوب هو هو لم يتغير . والمتغير هو اللابس للثوب . وهكذا الحال فيمن يعمل بحسب إرادة الشيطان ؛ يكون الشيطان وراء ظهره ، وقد وضع عليه لجام إرادته ، ويديره أنّى شاء ، حاملا إياه على الإسراع إلى كل إثم .

ويجب على الجماعة المؤمنة بالله وجوبا مؤكدا أن تعظ المتهاون فى طاعة الله وتوبخه على تهاونه . ليرجع إلى الطاعة . ذلك أنفع للمتهاون من أن تبغضه الجماعة ، وتعامله معاملة عدو . فإنهم إن عاملوه كعدو ، ربما يصل بهم الحال إلى قتله . ومثل ذلك مثل أعضاء الجسد . فإنها تتعاون على حياة الإنسان إذا كان رأس الجسد موجودا فى الجسد مع الأعضاء . إما إذا انفصل الرأس عن الجسد ؛ فإن تعاون الأعضاء لا يجدى نفعا . والجماعة المؤمنة مثلها مثل أعضاء الجسد ، ومثل الرأس كمثل الله الذى تعمل الجماعة بقوته على إرضائه . فإذا لم يعملوا على إرضائه ، يكونون منفصلين عنه ، ويكون

منفصلا عنهم . وحينئذ لا ينفع للأعضاء تعاون مّا .

يقول عيسى عليه السلام وهو يوبخ اليهود الرافضين لكلامه : « لعمر الله الذى تقف نفسى فى حضرته إن من يخاف ويحب الله خالقه ؛ يرحمُ من يرحمه الله ـ الذى هو رأسه ـ ولما كان الله لا يريد موت الخاطئ ، بل يمهل كل أحد للتوبة . فلو كنتم من ذلك الجسد الذى أنا متحد فيه ، لكنتم ـ لعمر الله ـ تساعدوننى لأعمل بحسب مشيئة رأسى » .

« حقا . إن أعضاء الجسد تتعاون متى كانت متحدة بالرأس ، وإن ما انفصل منها عن الرأس ؛ فلا يعينه ؛ لأن يدى الجسد لا تشعران بألم رجلى جسد آخر ، بل برجلى الجسد الذى هى متحدة به » .

« إذا كنت أفعل الإثم ؛ وبخونى ؛ يحببكم الله ؛ لأنكم تكونون عاملين بحسب إرادته ، ولكن إذا لم يقدر أحد أن يوبخنى على خطيئة فذلك دليل على أنكم لستم أبناء إبراهيم ـ كما تَدْعُون أنفسكم ـ ولا أنتم متحدون بذلك الرأس الذى كان إبراهيم متحدا به . لعمر الله . إن إبراهيم أحب الله بحيث أنه لم يكتف بتحطيم الأصنام الباطلة تحطيما ولا بهجر أبيه وأمه ، ولكنه كان يريد أن يذبح ابنه طاعة لله » .

« إذا كنت قد أخطأتُ ـ كما أعلم ذلك منكم ـ فلماذا لم توبخوننى كأخ، بدلا من أن تبغضوننى كعدو ؟ »

***

والمجاهد فى سبيل الله . يكون فى محنة وهو على قيد الحياة ؛ وذلك لأن الشيطان يحرض عليه أهل الكفر فيحرمه من الراحة . وإذا دنا أجله وفارقته روحه . فإنه يكون قد تخلص من المحنة ، ومضى إلى الراحة حيث جنات النعيم . وإذ هو قد تخلص من المحنة ؛ فإن من يحزن على موته من أحبابه ؛ يكون عدوا له . لأنه لما كان لا يريد له موتا ، كأنه كان يريد له الاستمرار فى المحنة . أما من يحبه ، ويراه قد انتقل من المحنة إلى الراحة .

فإنه يفرح له ، ويتمنى اللحاق به فى أسرع وقت ، بميتة ثمينة كموتته .

وإن حزن المجاهدين على سوء حالهم فى الدنيا ؛ سيتحول إلى فرح فى جنات النعيم ، وسرور أهل العالم ببعدهم عن الله ، وحبهم للدنيا ؛ سيتحول إلى حزن فى نار السعير . ولذلك يجب على المجاهدين إذا سُرَّ العالم أن يحزنوا ؛ على انفصالهم عن الله ؛ لأن مسرة العالم ستنقلب إلى بكاء ، ولأن حزنهم سيتحول إلى فرح .

تم الكلام فى قيمة الحياة

نَصُّ الكِتاب

المراثى : إنما جُعلت تسليةً لمن عضّته النوائب بأنيابها ، وفرقّت الحوادث بين نفسه وأحبابها ؛ وتأسيةً لمن سبق إلى هذا المَصْرع ، ونهل من هذا المَشْرَع ؛ ووثُوقاً باللَّحاق بالماضى ، وعلماً أن حادثة الموت من الديون التى لابدّ لها من التّقاضى ، وأنه لا سبيل إلى الخلود والبقاء ، ولابدّ لكلّ نفس من الذّهاب ولكلّ جسد من الفناء ؛ قال الله تعالى فى مُحْكم تنزيله مخاطبة لرسوله : ﴿وَمَا جَعَلْنَا لِبَشَرٍ مِّن قَبْلِكَ الْخُلْدَ أَفَإِن مِّتَّ فَهُمُ الْخَالِدُونَ ﴿٣٤﴾ كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَنَبْلُوكُم بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾﴾ . فليَرْضَ من فُجِع بخليله وشقيقه ، وصاحبه وصديقه ؛ وأهله وولده ، وجمعه وعَدده ، وماله ومدده ، نفسَه الجامحةَ فى ميادين أسفها وبكائها ، الجانحةَ إلى طلب دوائها من مَظانٍّ أدوائها ، بزمام الصبر الجميل ، لينال الأجرَ الكريم والثوابَ الجزيل؛ فقد أثنى الله تعالى بقوله : ﴿ وَالصَّابِرِينَ عَلَىٰ مَا أَصَابَهُمْ ﴾ ؛ وقال تعالى إخباراً عن لُقْمان فى وصيّته لابنه : ﴿ وَاصْبِرْ عَلَىٰ مَا أَصَابَكَ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ الْأُمُورِ ﴿١٧﴾ ﴾ وليسترجعْ من أصابته مصيبة ، أو نزلت به بليّة ، وطرَقته حادثةٌ أو ألَمّت به رزّية ، لما جعل الله تعالى للمسترجع بفضله ومنّته ، من صلاته عليه ورحمته ؛ قال الله عز وجل : ﴿ الَّذِينَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوا إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّا إِلَيْهِ رَاجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُولَٰئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَاتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ . وليتأسَّ الفاقد برسول الله ﷺ ، فقد جعل الله فيه أُسوةً حسنةً لمن كان يرجو الله واليوم الآخر ، وليقتدِ بأصحابه رضى الله عنهم ليفوز بثواب الصابر ، ويحوز أجر الشاكر .

وباب الرثاء هو باب فسيح الرِّحاب والنوادى ، فصيح اللسان فى إجابة المنادى ذى القلب الصادى ؛ متباين الأُسلوب ، مختلف الأطراف متباعد الشعوب ؛ منه ما يُصْمِى القلوب بنباله ، ومنه ما يُسَلّيها بلطيف مَقاله ؛ ومنه من يبعثها على الأسف ، ومنه ما يصرِفها عن موارد التلَف . وقد أكثر الشعراء

القول فى هذا الباب ، وارتقَوا الذُّرْوة العلياء من هذه الهضاب ؛ ووجدوا مكان القول ذا سعة فقالوا ، وأصابهم هجير اللوعة فمالوا إلى ظلّه وقالوا . قال الأصمَعىّ قلتُ لأعرابىّ : ما بالُ المراثى أشرف أشعاركم ؟ قال : لأنا نقولها وقلوبنا محترِقة . وعلى الجملة فالموت هو المصيبة التى لا تُدْفَع ، والرزيّة التى لا تُرَدّ بكثرة الجموع ولا تُمنع ؛ والحادثة التى لا تنصرف بالفداء وإن جلّ مقدارهُ ، والنازلة التى لا تتأخر عن وقتها بالدعاء وإن عظُمت فى غيرها آثارهُ؛ وهو أحد الأربعة التى فُرِغ منها ، وصُرِفت وجوهُ المطامع عنها . وقد قالت الحكماء : أعظم المصائب كلِّها انقطاع الرجاء . وقالوا : كلّ شىء يبدو صغيرا ثم يعظُم إلا المصيبة فإنّها تبدو عظيمةً ثم تصغُر . وقالوا : لا يكون البكاء إلا من فضل ، فإذا اشتدّ الحزن ذهب البكاء . قال الشاعر

فلئن بكَينا لَحقّ لنا * ولئن تركنا ذاك للصبْرِ
فَلمثله جرَتِ العيونُ دَماً * ولمثله جَمُدَت فلم تَجْرِ

وقيل : مرّ الأحنف بامرأة تبكى ميِّتا ورجلٌ ينهاها ، فقال : دعها فإنها تندُب عهداً وسفَرا بعيدا . قيل لأعرابيّة مات ابنها : ما أحسنَ عزاءك ؛ قالت: إنّ فقدى إيّاه آمننى كلَّ فقدِ سواه ، وإنّ مُصيبتى به هوّنتْ علىّ المصائبَ بعده، ثم أنشأت تقول

كنتَ السوادَ لمُقْلتَى * فَعمِى عليكَ النّاظرُ
مَن شاء بعدكَ فليَمُتْ * فعليكَ كنتُ أُحاذِرُ
ليتَ المنازلَ والدِّيا * رَ حفائرٌ وَ مَقابرُ
إنّى و غيرى لامحا * لةَ حيثُ صرتَ لصائر

وقد نقل أبو الفرج الأصفهانىّ أن بعض هذا الشعر لإبراهيم بن العبّاس ابن محمد بن صُوْل يرثى ابنا له فقال :

أنتَ السوادُ لمقلة * تبكى عليك وناظرُ
من شاء بعدكَ فليمُتْ * فعليكَ كنتُ أُحاذِرُ

ولم يزد على هذين البيتين شيئا . أخذ الحسن بن هانئ معنى البيت الأوّل فقال فى الأمين

طوى الموتُ ما بينى وبينَ محمد * وليس لما تطوى المنيّةُ ناشرُ
وكنت عليه أحذَرُ الموتَ وحدَهُ * فلم يبقَ لى شىءٌ عليه أُحاذِرُ
لئن عَمَرَتْ دورٌ بمن لا نُحبّه * لقد عَمَرت ممن نُحِبُّ المقابر

وقيل : من أحسن ما قيل فى التعازى : أنّ أعرابيّاً مات له ثلاثة بنين فى يوم واحد فدفنهم وعاد إلى مجلسه ، فجعل يتحدّث كأن لم يفقد أحدا ، فليمَ على ذلك ، فقال: ليسوا فى الموت ببديع، ولا أنا فى المصيبة بأوحد، ولا جدوى للجزَع، فعلام تلومونني ؟ وهذه ثلاثة الأقسام لا رابع لها. وعزّى أعرابىّ رجلا فقال: لا أراك الله بعد مصيبتك ما يُنسيكَها . وقيل : لما دفن على بن أبى طالب رضى الله عنه فاطمةَ رضى الله عنها تمثّل على قبرها بهذين البيتين:

لكل اجتماعٍ من خليلين فُرْقةٌ * وكلُّ الذى دون الممات قليلُ
وإن افتقادى واحداً بعد واحدٍ * دليلٌ على ألاّ يدومَ خَليلُ

وعزّى على بن أبى طالب رضى الله عنه الأشعث بن قَيْس عن ابنه فقال: إن تحزَن فقد استحقّت ذلك منك الرحم ، وإن تصبر ففى الله خَلَفٌ من كلّ هالك ، مع أنك إن صبَرت جرى عليك القدرُ وأنت مأجور ، وإن جزعت جرى عليك القدرُ وأنت موزور ، سرّك الله وهو بلاءٌ وفتنة ، وحزَنَك وهو ثواب ورحمة .

وعزّى أكثم بن صَيْفىّ حكيم العرب عمرو بن هند الملك عن أخيه فقال: أيها الملك ، إن أهل هذه الدار سَفْر لا يحلُّون عَقْد الرحال إلا فى غيرها ، وقد أتاك ما ليس بمردود عنك ، وارتحل عنك ما ليس براجع إليك ، وأقام معك من سيَظْعَنُ ويدعُكَ ، فما أحسنَ الشكرَ للمنعم والتسليمَ للقادر ؛ وقد مضت لنا أصول نحن فروعها فما بقاء الفرع بعد أصله ؛ واعلم أنّ أعظم من المصيبة سوءُ الخَلَف منها ، وخيرٌ من الخير مُعطيه ، وشرٌّ من الشرّ فاعلهُ .

وقال ابن السمّاك : المصيبة واحدة ، فإن كان فيها جَزَعٌ فهى اثنتان . وقال أبو علىّ الرازىّ : صحبت الفُضَيل بن عيَاض ثلاثين سنة ما رأيته ضاحكا ولا مُتبسِّما إلا يوم مات ابنه علىّ ، فقلت له فى ذلك ؛ فقال : إن الله أحبّ أمرا فأحببت ما أحبّ الله . وقال صالح المُرِّىّ : إن تكن مُصيبتُك فى أخيك أحدثت لك خشيةً فنعم المصيبةُ مصيبتُك ، وإن تكن مصيبتُك بأخيك أحدثت لك جَزَعاً فبئست المصيبةُ مصيبتُك . وقال علىّ بن موسى للفضل بن سهل يعزّيه : التّهنئةُ بآجل الثواب أولى من التّعزية على عاجل المصيبة . وعزّى الرشيدَ رجلٌ فقال : كان لك الأجرُ يا أمير المؤمنين لا بك ، وكان العزاءُ لك لا عنك . أخذه الآخر فقال

كُن المُعَزَّى لا المُعزِّى بـه * إن كان لابُدَّ من الواحد

وقال عمر بن عبد العزيز لابنه عبد الملك وقد اشتد به الألم : كيف تجدُك يا بُنىّ ؟ قال : أجدنى فى الموت فاحتسِبْنى ، فإنّ ثواب الله خيرٌ لكَ منّى؛ قال : والله يا بُنىّ لأن تكون فى ميزانى أحبُّ إلىّ من أن أكون فى ميزانك ؛ قال : وأنا والله لأن يكون ما تُحبُّ أحبُّ إلىّ من أن يكون ما أُحبُّ. وعزّى شبيب بن شبّة أبا جعفر المنصور بأخيه أبى العبّاس السفّاح فقال: جعل الله ثواب ما رُزِئْتَ لك أجرا ، وأعقبك عليه صَبْرا ، وختم لك بعافية تامّة ، ونعمة عامّة ، فثوابُ الله خيرٌ لك منه ، وأحقُّ ما صُبِر عليه ما ليسَ إلى تغييرِ سبيل .

ودخل البَلاَذُرِىّ على علىّ بن موسى الرِّضِىّ يُعزِّيه بابنه فقال : أنت تجِلّ عن وصفنا ، ونحن نقصُر عن عِظتك ، وفى علمك ما كفاك ، وفى ثواب الله ما عزّاك .

فهذه نُبذة فى التعازى كافية ، وجُنّة لمن تحصّن بها من ذوى الفجائع واقية . **فلنذكر المراثى :**

ذكر شىء من المراثى والنوادب

ولنبدأ من ذلك بما قاله رسول الله ﷺ ، وبشىء مما قيل عند وفاة رسول الله ﷺ ؛ فمن ذلك ما قاله رسول الله ﷺ يوم وفاة ولده إبراهيم عليه السلام : « يا إبراهيم ، لولا أنّه أمرٌ حَقٌّ ووعدٌ صِدْقٌ وأن آخِرنا سيلحَقُ أوّلنا لَحزِنّا عليك حُزْناً هو أشدُّ من هذا ، وإنا بك يا إبراهيم لمحزونون ، تبكى العينُ ويحزَن القلب ، ولا نقول ما يُسخِط الربّ » . ذكره الجوّانىّ النسّابة فى شجرة الأنساب ، وذكره غيره مختصراً .

ومنه ما روى أن فاطمة رضى الله عنها وقفت على قبره ﷺ وقالت :

إنّا فقدناك فقدَ الأرضِ وابلها * وغاب مذ غبْتَ عنّا الوحىُ والكُتُبُ
فليت قبلك كان الموتُ صادَفنا * لمّا نُعيتَ وحالت دونك الكُثُبُ

ووقف علىّ رضى الله عنه على قبره ﷺ ساعة دُفن وقال : إنّ الصّبر لجميلٌ إلا عنك ، وإنّ الجَزَع لقبيحٌ إلا عليك ، وإنّ المُصاب بك لجليل ، وإنه قبلك وبعدك لَجلَلَ . وقد ألّم الشعراء بهذا المعنى ، فقال إبراهيم بن إسماعيل فى علىّ بن أبى موسى الرضىّ .

إنّ الرزيّةَ يا بن موسى لم تَدَعْ * فى العَينِ بعدك للمصائب مَدْمَعا
والصبرُ يُحْمَدُ فى المواطن كلِّها * والصبرُ أن نبكى عَليك ونَجْزَعا

ووقف أعرابىّ على قبر رسول الله ﷺ فقال : قلتَ فقبلنا ، وأمرتَ فحفظْنا ، وقلتَ عن ربِّك فسمعنا : ﴿ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوا أَنفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَّحِيمًا ﴾ وقد ظلمنا أنفسنا وجئناك فاستغفر لنا ؛ فما بقيت عينٌ إلا سالت .

ودخل عمر بن الخطّاب على أبى بكر الصدّيق رضى الله عنهما فى مرض موته ، فقال : يا خليفة رسول الله ﷺ ، لقد كلّفتَ القوم بعدك تَعَبا ، وولّيتهم نصبًا ، فهيهات مَنْ شقّ غُبارك ؛ وكيف باللّحاق بك .

وقالت عائشة أمّ المؤمنين رضى الله عنها وأبوها يُغَمّض :

وأبيضَ يُستَسقَى الغَمامُ بوجهه * ثِمالُ اليتامى عِصْمةٌ للأرامل

فنظر إليها وقال : ذاك رسول الله ﷺ . ثم أُغمِى عليه ، فقالت :

لَعَمْرُكَ ما يُغنى الثراءُ عن الفتَى * إذا حَشْرَجت يوماً وضاق بها الصدرُ

فنظر إليها كالغضبان وقال: قولى: ﴿ **وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنتَ مِنْهُ تَحِيد** ﴾ ثم قال : انظروا مُلاءتَىّ فاغسلوهما وكفّنونى فيهما، فإن الحىّ أحوجُ إلى الجديد من الميّت . ووقفتْ رضى الله عنها على قبره رضى الله عنه فقالت : نضّرَ الله وجهَك، وشكَرَ لك صالحَ سَعيك، فقد كنت للدنيا مُذلاً بإدبارك عنها ، وكنتَ للآخرة مُعزاً بإقبالك عليها ، ولئن كان أجلُّ الحوادث بعد رسول الله ﷺ رُزءك ، وأعظمُ المصائب بعده فقدَك . إنّ كتاب الله لَيَعدُ بحُسنِ الصبر فيك وحسن العِوَض منك ، فإنّا لتنجز موعودَ الله بحسن العَزَاء عليك، واستعيضه منك بالاستغفار لك؛أمَا لئن كانوا أقاموا بأمور الدنيا لقد قمتَ بأمر الدِّين حين وَهَى شَعْبه،وتفاقم صَدْعه ، ورَجفت جوانبه؛فعليك السّلام ورحمة الله توديعَ غير قالية لك،ولا زارية على القضاء فيك.ثم انصرفت .

ولما قُبض رضى الله عنه سُجِّى عليه بالثوب فارتجّت المدينة بالبكاء ودَهِش القوم كيومَ قُبض رسول الله ﷺ ؛ وجاء علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه باكياً مُسرعا مُسترجعاً حتى وقف بالباب وهو يقول : رحمك الله أبا بكر ، كنتَ والله أوّلَ القوم إسلاما ، وأخلصَهم إيمانا ، وأشدَّهم يقينا ، وأعظمَهم غَناء ، وأحفظَهم على رسول الله ﷺ ، وأحدبَهم على الإسلام ، وأحناهم على أهله ، وأشبههم برسول الله ﷺ خُلُقا وفضلا وهَدْيا وسَمْتا ، فجزاك الله عن الإسلام وعن رسول الله ﷺ خيرا ، صدّقت رسولَ الله ﷺ حين كذّبه الناس ، وواسيتَه حين بَخلُوا ، وقمتَ معه حين قعدوا ، وأسماك الله فى كتابه صدِّيقا فقال : ﴿ **وَالَّذِي جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ أُولَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ** ﴾(١)

(١) فى مخطوطات قُمران عن محمد ﷺ أنه معلم الحق والصدق .

يريد محمدا ويريدك . كنت والله للإسلام حصنا وعلى الكافرين عذابا ، لم تُفلَلْ حُجَّتُك ، ولم تضعُف بصيرتُك ، ولم تجبُن نفسُك . كنت كالجبل الذى لا تحرّكه العواصف ولا تُزيله القواصف . كنت كما قال رسول الله ﷺ ضعيفاً فى بدنك ، قوياً فى أمر الله ، متواضعاً فى نفسك ، عظيماً عند الله ، جليلاً فى الأرض ، كبيراً عند المؤمنين . لم يكن لأحد عندك مطمعٌ ولا لأحد عندك هَوَادة ، فالقوىّ عندك ضعيفٌ حتى تأخذَ الحقَّ منه ، والضعيفُ عندك قوىٌّ حتى تأخذ الحقّ له ، فلا حَرمنا الله أجرك ، ولا أضلّنا بعدك . فانظر إلى هذا الأسلوب العجيب ، وتأمّل هذا النمَط الغريب الذى جمع بين سلاسة الألفاظ وإيجازها ، وإصابة المعانى وإعجازها . ولا يُستكثَر على من أُنزِل القرآنُ بلغتهم، أن يكون هذا القول من بَديهتهم .

ولنذكر لُمْعَةً من رسائل البلغاء والفضلاء ، ولَمْحةً من أشعار الأدباء والشعراء ؛ فمن ذلك : رسالة كتبها الوزير الفقيه الكاتب أبو القاسم محمد بن عبد الله بن الجدّ ، إلى الوزير الفقيه أبى القاسم الهُورينى يعزّيه عن أخيه ، ابتدأها بأن قال :

لابُدَّ من فقد ومن فاقد * هيهاتَ ما فى النّاس من خالد
كُن المُعزَّى لا المُعَزّى به * إن كان لابدّ من الواحد

إذا لم يكن بُدٌّ من تجرُّع الحمام ، وتشتُّت النِّظام ، وانصداع شَمْل الكرام، فمن الاتفاق السعيد والقدَر الحميد أن يرث أعمارَ البنيَة الكريمة مُشيِّد عُلاها ، وتسلَم من القلادة وُسْطاها ، فمدار الكنانة على مُعَلّاها ، وفَخارُ الحَلْبة بمُحرز مَداها ؛ وفى هذه النُّبذة إشارةٌ إلى من فرَط من الإخوة النُّبلاء ، ودرَج من السادة النُّبَلاء ، ودرَج من السادة النُّجَباء ؛ فإنهم وإن كانوا فى رتبة الفضلِ صُدورا ؛ وغَدوا فى سماء النُّبل بدورا ؛ فإنَّ شمس عَلائك أبهرُ أضواءً وأزهرُ أنوارا ، وظلَّ جنابك على بنيهم ومُخلَّفيهم أندى آصالا وأبردُ أسحارا . نُعِى إلىّ ـ أوشك الله سلوانك ، ولا أخلى من شخصك الكريم مكانك ـ الوزيرُ أبو فلان ، برّد الله ثراه ، وكرّم مثواه ، فكأنّما طَعَن ناعِيه فى كبِدى ،

وظَعَن باكيه بذخيرة جَلَدى ؛ لا جرم أنّى دُفعتُ إلى غمرة من التَّلَدُّد لو صُدِم بها النجمُ لحار ، أو دُهِم بها الحَزْم لحار ؛ ثم ثابتْ إلىّ نفسى وقد وقذَها الجزَع، وعضّها الوَجع ؛ فأطلْتُ الاسترجاع ، وجمعت الجَلَد الشَّعاع ؛ وها أنا عند الله أحتسبه جمَاعَ فضائل ، وجَمالَ محافل ؛ وحديقةَ مكارم صَوّحت، وصحيفةَ محاسن دَرَست وامّحت . وما اقتصرت من رسم التعزية المألوف ، على القليل المحذوف ؛ إلا لعلمى بأن المعزّى لا يُورد عليك غريبا ، ولا يُسمعك من مواعظه عجيبا ؛ فبك يقتدى اللّبيب ، وعلى مثالك يحتذى الأذيب ، وإلى غَرَضك فى كل موطنٍ يُوفِى(١) المُصيبُ ؛ وفى تجافى الأقدار عن حَوْبائك ، وسقوطها دون فنائك ، ما يدعو إلى حسن التعزية ، لا صدَع الله جمْعَك ، ولا قرَع بَنْبأة المكروه سمعك .

ومن إنشاء القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى : ورد الخبر بمصرَع فلان الذى عزّ على المعالى ، وعُزّيت به الليالى ؛ وسقط به نجمُ الشرف وهَوَى، وجفّ به روض الكرم وذَوَى ؛ ونقصت الأرض من أطرافها ، ورَجفت الجبال من أعرافها ؛ وبكت عليه السماء فإن يده كانت من سُحبها ، وتناثرت له النجوم فإن عزمه كان من شُهُبها ؛ وأظلمت فى عينى الدنيا الظالمة، وتجرّعت منها كأساً لا تُسيغها النفسُ كاظمة ، وتقسّمت الأيامُ فريقين فى مودّتى وعداوتى ، فآهاً على السالفة ولا مرحباً بالقادمة ؛ وأصبحت أخوض الماء وأحشائى تتقطّع غليلا ، وأرى الناس كثيرا بعينى وبقلبى قليلا .

وما النّاسُ فى عَيْنَىَّ إلاّ حجارةٌ ✽ لبينِكَ والأعراسُ إلاّ مآتمُ

فلقد استوحشت الدنيا لفقده ، وارتابت بنفسها مِنْ بعده ، وعلمتْ حلاوةَ قربه بمرارة بُعده ؛ وانصرف ذو الأبواب عن بابه ، واجتنبت الآمال مَغْنَى جنابه ، وبكت الرياض على آثار سحابه .

فإنْ يُمْسِ وَحْشاً بابُه فلربّما ✽ تناطَحَ أفواجاً عليه المواكبُ

---

(١) كذا بالأصول : ولعله محرّف عن « يرمى » .

ومن إنشائه أيضا رحمه الله تعالى : ما شككتُ ـ أطال الله بقاءك ـ حين ورد النعى بالمصائب التى قصَمت الظهورَ بمكروهها ، وحَسَرت فيها الحَسَراتُ عن وجوهها ؛ أن السماءَ على الأرض قد انطبقت ، وأن الأيّام ما أبْقت والسعادةَ قد أَبقَتْ ؛ والحياةُ لم يبق فى طولها طائل ، والصبرَ بهجير اللوعة ظِلٌّ منسوخٌ زائل ؛ وشمسَ الفضائل قد غرَبت وكيف بطلوعها ، ونفس المكارم قد نُزعت من بين ضلوعها ؛ وغابَ الإسلامِ قد غاب منه أىُّ لَيْث ، ورياض الآمال قد أقلع عن سُقياها أىّ غيث ؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون رضاً بحكمه ، وتجلُّداً على ما رمى به الحادث من سهمه ، وطِبًّا للقلوب على مَضَض البلاء وكَلمه ، وفراراً من الجمع بين مصيبة الفاقد وإثمه ؛ وسقى الله ذاك الضريحَ ما شاء أن يسقيه من سحاب كصوب يديه ، ورحمه رحمةً تحُفّ بجانبيه ؛ وآهاً للماء العَذْب كيف كيف ارتشفته النوازل وأبقت المِلح ، ثم آهاً للصباح الطَّلْق كيف اغتالته الأصائل وأطلقت الجُنْح ، ووا أسفًا لتلك الذخيرة التى فذلكت بها الأيّام ذخائرى ، والسريرة التى طالما صُنْتَها أن تمرّ بسرائرى ؛ شفَقاً عليها من سهام دهر بالذخائر مُولَعة ، وستَراً لها من عين زمان على السرائر مُوقَعة ؛ ولئن صحب قلبى بعده أضلعى ، وتحملّتُ بعد فقده على ظَلَعى فإنّا غداً على أثره ، وإن كنا اليوم على خبره . وقَصْرُ الحياة إلى قُصور، كما أن محصول غرورها غرور . والتأدّبُ بأدب الله أولى ما خفّف به المسلوب عن مَنكبه ، وطريقُ السّلوان لابدّ أن يُراجعه عَزْم مُنَكّبه . فأنشُدها الله أمّا جعلتْ مُصيبتها مصيبةً على الشامت بما تلبَسه من صبر يَلْبس عليه المصيبةَ فيُشبِّهها بنعْمة ، وبما تستشعره[1] من تجلُّد فى النازلة تُنْزَل عليها صلواتٌ من ربّها ورَحْمة ؛ ولن ترى أعجب من مُصاب لا ترى به إلا مُصابا ، وساكن تُرب لم يبقَ بعده إلا من سقى بدمعه تُرابا ؛ اشترك فيه الأُمّتان العربُ والعَجَم، وعُزّى به العزيزان المجدُ والكرم ، واستباح الدهرُ به الصيدَ فى الحَرَم.

وتَشابهَ الباكُون فيه فلم يَبِنْ ✽ دمعُ المُحِقِّ لنـا من المُتَـعَمِّلِ

(١) فى الأصل : « يستشعره » .

وكتب أيضا فى مثل ذلك : أخّرتُ مكاتبة الحضرة ـ مدّ الله فى عمرها وفى صبرها وفى أجرها ، وألهمها التسليم لحكم من هو غالبٌ على أمرها ـ إلى أن تنقضى نَبْوة الخَطْب ، وتضعَ الأنفاسُ أوزارها للحرب ، ويُخرِج ماءُ الجفن نارَ القلب ، وتَراجَعَ الخواطرُ إلى عادتها ، وتنظرَ فى الدنيا التى ما صُحِبت إلاّ على عادياتها ومُعاداتها ؛ فتكونَ الحضرة عرَفت من غير تعريف ، ووَقَفت على الحزم من غير توقيف ؛ وتوفّر عليها الثواب بغير مُشارك ، ورجعت إلى فهمٍ مُدركٍ وصوابِ مُدارك . وتأخير التعزية عن البادرة خلافُ ما شُرِع فيها ، ولكن إنما يحتاج أن يُثبِّتَ مَن صبرهُ هاف ، ويُرَمَّ مَن تجلُّده عافٍ؛ وقد علم الله اهتمامى واغتنامى بفقد شيخها رحمه الله وعدَمها منه من لا عِوَض عنه إلا ثواب الله الذى يُهَوِّن الوقائع ، ويُوَطِّن على الروائع . وأسباب التعزية غير واحدة ، منها أنه إنما دَرَج فى السنّ التى هى مُعترك المنايا ، ومنها أنه ما خرج عن الدنيا إلى أن رأى منها خَلَفاً يهوّن الرزايا ، ومنها أنه لقى الله بعملٍ صالح هو بمشيئة الله نجاتُه ، ومنها أنه فارقها على الرضا عنها ويكفيها مرضاتُه ، وعلى الدعاء المقبول لها ونعمت الجُنَن دعواته ؛ ولكن للألاّف لابدّ حسرةٌ إذا جَعَلتْ أقرانُها تنقطع ؛ ومنها أن الحزن لو أُطِيع والحزم لو أُضِيع لما أفضى إلى مَرَاد ، ولا أعاد ميّتاً قبل المَعاد ؛ وأحقُّ متروك ما يأثم طالبه ، ويُؤجَرُ مُجانبه .

عن الدهـر فاصـفَحْ إنّـه غـيرُ مُـعتِب

وفى غيرِ مَن قد وَارت التُّربُ فاطمَعِ

والحضرة تُعْلمنى من لاحقةِ رجوعها إلى الله بعد الاسترجاع ، ومن تسليم خاطرِ الحزن إلى حكم الله ما يُسرّ خاطر الاستطلاع ؛ وحسبه أبقاه الله تعالى من كلّ هالك ، ولا يجزَع المحاسَب مِنْ فَذًا لك ، ومثله مَنْ أخذ بعزائم الله فيما هو آخذ وتارك . جبرَ الله مُصابَه ، وسقى الماضى وروّى ترابه ، ولا تذهب النفس حسرةً لما شهدت العينُ ذَهابَه .

وتـخـطّفته يـدُ الـردى فى غَيْبـتى ✽ هَبْنى حضرتُ فكنتُ ماذا أصنَعُ ؟

ومن إنشاء الشيخ ضياء الدين أحمد بن محمد القُرْطبيّ ما كتب به إلى الصاحب شرف الدين الفائزىّ يعزّيه فى مملوك تُوفِّى له وكان الصاحب قد جزع لفقده . ابتدأ كتابه بأن قال :

فِدىً لك مَن يُقَصِّرُ عن مَداكا * فـلا أحدٌ إذاً إلا فـداكـا

إنّا لله وإنا إليه راجعون ، لقد كان لكم فى رسول الله أُسْوَةٌ حَسَنة ، وسنَّة فى الأسى مُستحسنة ؛وإنما الأنفسُ ودائعُ مُستودَعة ، وعَوارٍ مُسترجَعة ، ومواهبُ بيد الفناء مُستنزَعة .

فالعمرُ نومٌ والمنيّةُ يَـقْظَـةٌ * والمرءُ بينهما خَيالٌ سارى

وما برح ذو العزَمات يتلقَّون واردات المصائب بصبرهم ﴿ **وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ** ﴾ وإنّ يد الله لمليّة بفيض المواهب ، وفى الله عوضٌ من كلّ بائن وخلفٌ من كلّ ذاهب ؛ وإذا سلم مولانا فى نفسه وولده،فلا بأس إذا تطرّقت يدُ الردى إلى ملْك يده.

فأنت جوهرةُ الأعناقِ ، ما مَلَكت * كَفَّـاك مـن طـارف أو تـالدٍ عَرَضُ

والحمد لله الذى جعل المصيبةَ عندك لا بك ، والرزيَّةَ لك لا فيك .

* إذا سَلِمْتَ فكلّ الناس قد سلموا *

وإذا تخطّتكما المنيَّةُ فلها فى سواكما الخِيار ، ولنا القِدْح المُعَلَّى إذا أورى زَنْد هذا الاختيار . ولابدّ فى مَشْرَع المنيّة من مفقودٍ وفاقد

كـُن المُـعـزَّى لا المُـعـزَّى بـهِ * إن كـان لابـدّ مـن الـواحـد

وهذا فقد وهبه الله لمولانا من حيثُ إنه أخذه منه ، وأبقاه له من حيث رآه ذاهباً عنه ، فهو بالأمس عاريَةٌ مردودة ، واليوم ذخيرةٌ موجودة ، وكان عطيّةٌ مسلوبة ، وهو الآن نعمةٌ موهوبة ؛ كنتَ له وهو الآن لك ، وفُزتَ به والسعيدُ من فاز بما ملك . وهذه دارٌ دَواؤها دَاؤها(١) ، وبَقاؤها فَناؤها ؛

(١) فى نسخة : ذَوَاؤُها .

طالبها مطلوب ، وسالبها مسلوب ؛ وإنّ لنا فيمن سلَف لعزاء ، ولنا برسول الله ﷺ اقتداء ؛ ولابدّ من وُرود هذا المشرَع ، ومُلاقاة هذا المصرَع .

ومن إنشاء المولى شهاب الدين محمود الحلبىّ ما كتب به عن بعض النوّاب إلى الأمير عزّ الدين الحموىّ النائب كان بدمَشْق تعزيةً بولده :

أعز الله أنصار المقرّ الكريم العالى ، ولا هدَمت له الخطوب ركنا ، ولا فجأت له الحوادث حمىً ولا طلبت عليه إذنا ، ولا هصَرتْ أيدى الأقدار من عروشه الناضرة غُصْنًا ، ولا أذاقته الأيّام بعد ما مرّ أسفاً على من يحبّ ولا حُزنا ، ولا سلَبه الجزَع رداء الصبْر الذى يخصه بجزيل الأجر وإن شركه فى الأسى والأسَف كلٌّ منّا . المملوك يقبّل اليد الكريمة ، ويُنْهِى أنه اتّصل به النبأ الذى صدَع قلبَه ، وشغَل بالبكاء طَرْفه وبالأسف لسانَه وبالحزن لُبَّه ؛ وهو ما قدّره الله تعالى من وفاة المولى الأمير ركن الدين عمر ـ تغمّده الله برضوانه ـ الذى اختار الله له ما لديه ، وارتضى له البقاءَ الدائم على الفانى فنقله إليه ؛ على أن الدين فقد منه رُكناً شديدا ، ورأياً سديداً ، وعزماً وحزماً مُعيناً مُفيداً، وأميراً أردنا أن يعيش سعيداً ، فأبى الله إلا أن يموت شهيداً ؛ فإنا لله وإنا إليه راجعون . لقد كان للرجال فى اعتضاد الدولة القاهرة به أىُّ مجال ، وللآمال فى الانتظار ببأسه ظنونٌ تُحقّق أن الغلبة للدِّين دائما مع أن الحروب سجال ؛ وللمواكب بطلوع طلعته أىُّ إشراق ، وللعيون عن مشاهدة كماله وأُبهةَ جلاله أىُّ إغضاء وأىُّ إطراق. ولله أى بدر هوى من أفق بروجه[1] عن فلك،وأى شمس ما رأته الجوارى الكُنّس إلا قلن: ﴿حَاشَ لِلَّهِ مَا هَٰذَا بَشَرًا إِنْ هَٰذَا إِلَّا مَلَكٌ﴾ وأىّ حصن كانت منه ثمار الشجاعة تُجتنَى ، وأىّ أسد براثنُهُ الصوارم وأجماته القَنَا ؛ لقد فَتَّ فى عَضُد الدين مُصابُه ، واذهب صحةَ الأُنْس به وحلاوةَ وجوده أوصابُ فقده وصابه ؛ وكادت الصوارمُ أن تُشقّ عليه غُمودُها، والراياتُ أن تُقطّع عليه ذوائبَها وتُغيِّر بنودَها ، والرماحُ أن تَعْرض على النار لتَقْصِف لا لِتُثَقَّفَ قُودُها ، والجيادُ أن تتعثَّر للحزن بذيولها ، وتعتاضَ بالنوح

(١) فى الأصل : من أفق سروجه .

عن صهيلها ؛ ولو أُنصِف لأكَنّته القلوب فى ضمائرها ، ولو قُبِل الفداءَ لسمحَت فيه النفوسُ بالنفائس ولو كانت الحياةُ من ذخائرها ، أو لو كان الحتف مما يُدافَعُ بالجنود تحطمت دونه القنا فى دروع عساكرها ؛ ولكنه السبيل الذى لا مَحيدَ عن طريقه ، والمُعرَّسُ الذى لابد لكل حىّ من النزول على فَريقه ؛ وهو الغابة التى تستَنُّ إليها النفوس استنان الجِياد ، والحَلْبة التى كنا نحن وهذا الدارجُ نَركُض إليها ولكن السابق كان الجواد ، على أن المتأخر لابدّ له من اللحاق ، وماذا عسى يُسَرّ البدرُ بكماله وهو يعلم أن وراءه المحاق! وفى رسول الله أسوةٌ حسنةٌ لمن كان يعلم أن كل رُزءٍ بعده جَلَل ، وإذا انتقل العبد إلى الله تعالى غيرَ مفتون فى دينه ولا مُثْقَل الظهر من الأوزار حمد فى غَدٍ ما فعل ؛ وغُبِط بقدومه على أكرم الأكرمين مسروراً ، ولقى الله وقد جعل فى قلبه نوراً وفى سمعه نوراً وفى بصره نورا . والمولى أعزّه الله تعالى أولى من تلَقّى أمر الله بالتسليم والرضا ، وقابل أقدارَه بأن الخِيْرَةَ فيما قدّر وقضى ، وحمد الله على ما وهب من بقاء إخوته الذين فيهم أعظَمُ خَلَف ، وأجملُ عوض يقال به للدّهر الذى اعتذر بدوام المسَرّة فيهم : ﴿عَفَا اللَّهُ عَمَّا سَلَفَ﴾ وعلم أن الخطب الذى هدّ رُكن الدين باحترابه واجتراحه ، قد صرفه إلى الأمد عن الإلمام بساحة شهابه والتعرُّض إلى حمى فخره والنظر إلى حمى صلاحه ، ففى بقائهم ما يُرغم العدى ، ويُعزّ حزب الهدى ؛ ويُقيم كلا منهم في خدمة الدولة القاهرة بين يدى المولى مقامَ الشِّبل المنتمى للأسد ، ويُنْهضهم من مصالح الإسلام مع ما يعلمه منهم من حسن الثّبات من الوالد وسُرعة الوَثَبات من الولد ؛ والله تعالى يُجزِل له من الأجر أوفاه ، ويحفظ عليه ـ وقد فعل ـ أُخراه ، ويجعله للإسلام ذُخرا ، ولا يُسمعه مع طول البقاء بعدها تعزيةَ أخرى.

ومن أحسن الرثاء وأشجاه ما نطقت به الخَنْساء فى رِثائها لأخيها صَخْر ، فمن ذلك قولها :

ألاَ يا صـخرُ إن أبكيـتَ عينى ❊ لقـد أضحكتـنى دهـراً طَويلاَ
دفعتُ بك الجليلَ وأنـت حَـىٌّ ❊ فمن ذا يدفـعُ الخَطْـبَ الجَلِيلا

إذا قَبُح البُكاءُ على قتيلٍ * رأيتُ بُكاءَكَ الحَسَنَ الجَميلا

وقالت أيضا فيه :

ألاَ هَبِلت أمُّ الذين غَدَوْا به * إلى القبر ، ما ذا يحملون إلى القبر !
وما ذا يُوارِى القبرُ تحت تُرابه * من الجُود! يا بؤسَ الحوادث والدّهرِ!
فشأنَ المنايا إذ أصابك رَيْبُها * لِتَغْدُ على الفِتْيانِ بعدكَ أو تَسْرِى

وقالت :

يُذَكِّرنى طلوعُ الشمسِ صَخْراً * وأبكيه لكُلِّ غروبِ شمس
ولولا كثرةُ الباكينَ حولِى * على إخوانهم لقتلتُ نفسى
وما يَبْكُون مثلَ أخى ولكنْ * أُسَلِّى النفسَ عنه بالتأسِّى

وقالوا : أرثى بيت قالته العرب: قول مُتَمِّم بن نُوَيرة فى أخيه مالك ، وكان قد قتله خالد بن الوليد فى الردّة ، وكان متمم قدم العراق فأقبل لا يرى قبراً إلا بكى ، فقيل له :

يموت أخوك بالمَلاَ: وتبكى على قبرٍ بالعراق ! فقال :

لقد لاَمَنى عند القبورِ على البُكا * رفيقى لتَذْراف الدموع السّوافك
أمِنْ أجلِ قبرٍ بالمَلا أنت نائح * على كلِّ قبرٍ أو على كلِّ هالكَ
وقال : أتبكى كلَّ قبرٍ رأيته * لقبرٍ ثَوَى بين اللِّوى فالدَّكادك
فقلت له: إن الشجا يبعث الشّجى * فدعنى فهذا كله قبر مالكَ

معناه : قد ملأ الأرض مُصابُه عظَما فكأنه مدفونٌ بكلِّ مكان ، وهو أبلغ ما قيل فى تعظيم ميّت . وقيل : أرثى بيتٍ قالته العرب قول المُحْدَث :

على قبره بين القبورِ مَهَابةٌ

كما قبلها كانت على صاحب القبرِ

وقيل : بل قول الآخر :

أرادُوا لِيُخفُوا قبرَه عن عَدُوِّها * فطيبُ تراب القبرِ دلَّ على القبرِ

وقالوا : بل بيت غيره :

فما كان قيسٌ هُلْكُهُ هُلْك واحدٍ * ولـكـنَّه بُنْيانُ قومٍ تهدَّما

وقال الأصمَعيّ : أرثى بيتٍ قالته العرب قول الشاعر :

ومِن عَجَبٍ أن بتَّ مُستشعر الثَّرى * وبِتُّ بما زوّدتَني مُتمتِّعا
ولو أنني أنصفتُكَ الودَّ لم أبِتْ * خِلافَكَ حتى ننطَوِي فى الثّرى معا

ومن أحسن الرثاء قول حسين بن مُطَير الأسديّ :

أَلِمّا بمَعنٍ ثم قُولا لقبرِه: سقتْكَ الغوادِى مَرْبَعاً ثمّ مَرْبَعا
فَتىً عِيشَ فى معروفه بعد موته كما كان بعد السَّيلِ مَجْرَاه مَرْتَعا
أيا قبرَ معن كنتَ أوّلَ حُفْرةٍ من الأرض خُطّت للسماحة مَضْجَعا
ويا قبرَ من كيف واريتَ جُودَهُ وقد كان منه البرُّ والبحرُ مُتْرَعا !
بلى قد وسِعْتَ الجُودَ والجودُ ميِّتٌ ولو كان حيّاً ضِقْتَ حتى تَصدَّعا
ولما مضى معنٌ مضى الجودُ والنّدى واصبح عِرْنينُ المكارمِ أجْدَعا

قال أبو هلال العسكريّ : هذه الأبيات أرثى ما قيل فى الجاهليّة والإسلام .

وقال بكر بن النطاح يرثى معقِل بن عيسى :

وحدّثنى عن بعض ما قال أنّه رأت عينُه فيما ترى عينُ نائمٍ

كأنّ النَّدى يبكِى على قبرِ معقل
ولم ترَهُ يبكى على قبرِ حاتِمِ
ولا قبرِ كَعْب إذ يجودُ بنفسه
ولا قبرِ حِلف الجود قَيْسِ بن عاصِم
فأيقنتُ أن اللّه فضّل معقلا
علىَ كل مذكور بفضل المكارمِ

وقال آخر :

لعَمْرُك ما وارى الترابُ فَعالَه * ولكنّما وَارَى ثياباً وأعظُما

ومثله لمنصور النمرىّ

فإن تَكُ أفنته الليالى وأوشكا * فإنّ له ذِكْراً سيبْقَى اللياليَا

وقال التميمىّ فى منصور بن زياد :

أمّا القبورُ فإنّهنّ أوانسٌ * بفِناء قبرِك والديارُ قبورُ
عمّت صنائعهُ فعم ّ مُصابهُ * فالناسُ فيه كلُّهم مأجورُ
يثُنى عليك لسانُ من لم تُوله * خيراً لأنك بالثناء جدير
ردّت صنائعُه إليه حياتَه * فكأنه من نشرها منشورُ
فالناس مأتمهم عليه واحدٌ * فى كلّ دار رَنّةٌ وزفير

وقال ابن القزّاز المغربىّ :

سأبكيك لا أنّ البكا عَدْل لوعتى * ولا أنّ وجدى فيك كفء تَنَدُّمى
وقَلّ لعينى أن تفيضَ دموعُها * عليك ولو أنّ الذى فاض من دمى

وقال الخُرَيمىّ :

وأعددتُه ذُخراً لكلّ مُلمّة * وسهمُ الرزايا بالذخائر مُولَعُ
وإنى وإن أظهرتُ منّى جَلاَدة * وصانعتُ أعدائى عليه لَمُوجَعُ
ولو شئتُ أن أبكى دماً لبكيتُه * عليه ولكن ساحةُ الصبرِ أوسعُ

وقال أبو هِلال العسكرىّ :

على الرغم من أنف المكارمِ والعُلا * غدتْ دارُه قَفْراً ومَغْناه بَلْقعا

ألم تر أنّ البأسَ أصبح بعده * أشلَّ وأنّا لجودَ أصبح أجْدَعا
فمُرّاً على قبرِ المُسَوَّدِ وانظرا * إلى المجد والعلياء كيف تخشّعا
فإن يك واراه الترابُ فكبِّرا * على الجودِ والمعروف والفضلِ أربعا
ولا تسأما نَوْحاً عليه مكرَّراً * ونَوْحاً لفقد العارفات مرجّعا
فما كان قَيْسٌ هُلْكُهُ هُلك واحد * ولكنّه بُنيان قوم تضعضعا
ولا تحسبا أنّى أُواريه وحده * ولكنّنى واريتُه والنّدَى معا

وقال أيضا :

ألستَ ترى موتَ العُلا والفضائلِ * وكيف غروبُ النجم بين الجنادل!
فما للمنايا أغفلت كلَّ ناقصٍ * ونقّبن فى الآفاق عن كلِّ فاضلَ؟
على الرغم من أنف العُلا سيقَ للرّدى * بكلّ كريم الفعل حرٌّ الشمائل
على أنّ من أبقته ليس بخالد * وليس امرؤ يرجو الخلودَ بعاقل
رأيت المنايا بين غادٍ ورائحٍ * فما للبرايا بين ساه وغافلِ!
ولم أر كالدنيا حبيباً مُضِرَّةً * ولم أر مثل الموت حقّا كباطلِ

وقال الرقاشى فى البرامكة :

ألانَ استرحْنا واستراحت رِكابُنا * وقَلّ الذى يُحْدى ومن كان يَحتدى
فقلْ للمطايا : قد أمِنتِ من السُّرى * وطَيِّ الفيافى فَدْفَداً بعد فدفد
وقل للمنايا : قد ظَفِرتِ بجعفر * ولن تظفَرى من بعده بمُسَوَّدَ
وقل للعطايا بعد فَضْلَ : تَعَطَّلى * وقل للرزايا كلَّ يوم : تجدّدى
ودونَكَ سيفًا برمكياً مُهَنّداً * أُصيب بسيفِ هاشمىٍّ مهنّدِ

وقال آخر :

سأبكيك للدنيا وللدِّين ، إننى * رأيتُ يد المعروف بعدك شُلّت
ربيعٌ إذا ضنّ الغمامُ بمائه ، * وليثٌ إذا ما المَشْرفيّةُ سُلّتِ

وقال عبد الله بن المعتزّ :

ألستَ ترى موت العُلا والمحامد * وكيف دفنّا الخَلْق فى قبر واحد
وللدهر أيّامٌ يُسئْن عَوامِداً * ويُحسِنُّ إن أحسنّ غيرَ عَوامِدَ

وقال أبو الطَّيب المتنبى :

إنى لأعلم - واللبيبُ خبيرُ - * أن الحـــياة وإن حرَصــت غــُرورُ
ما كنتُ أعلم قبلَ دفنك(١)فى الثرى * أن الكــواكب فى التـُّراب تَغـورُ
خرجـــوا به ولكـــلّ بـاكٍ حـــوله * صَعَــقاتُ موسى يـــومَ دُكَّ الطُّورُ
حتّى أتَــوْا جَــدثًا كـأن ضريحَه * فى قلـب كـلِّ موحـِّـد محـــفورُ
نبــكى علــيه ومــا استــقرَّ قـراره * فى اللحــدِ حــتّى صافحته الحور

ومنها :

صـبْرًا على المكــروه(٢) فيه تكـرُّمًا * إن العظـيم علـى العظـيم صَبـورُ
ولكـــل مفجــوعٍ ســواكم مُشْــبِهٌ * ولكــــلّ مفقـــود ســواه نظـــيرُ

وقال آخر :

كفى حزَنًا أنّى تخلّفتُ بعده * أدورُ مع الباكين فى عرَصاته
وصارت يمينى ما حلفتُ بقبره * وكانت يمينى قبلها بحياتهِ

وقال آخر :

وكنت أخاف الدهرَ ما كان باقيًا * فلمّا تولّى مات خوفى على الدهر

وقال آخر :

ولما دعوتُ الصبْرَ بعدك والبُكا * أجاب البكا طوعًا ولم يُجب الصبرُ
وإن ينقطعْ منك الرجاءُ فإنه * سيبقى عليك الحزنُ ما بَقِيَ الدهرُ

وقال آخر :

فوالله لو أسطيعُ قاسمتُه الردى * فمتْنا جميعًا أو يُقاسِمُنى عُمْرى
ولكنّما أوراحُنا ملكُ غيرنا * فمالىَ فى نفسى ولا فيه من أمرِ
أُحَمِّلُهُ ثِقْلَ التراب وإنّنى * لأخشى عليه الثقل من مَوْطِئ الذَّر
وما أنا بالوافى وقد عشتُ بعدهُ * ورب اعتراف كان أبلغَ من عُذرِ

وقال آخر :

يا راحلا لم يُبْقِّ لى * من بعده فى العيش نَفعا

(١) كذا فى ديوان المتنبى طبع مطبعة هندية سنة ١٨٩٨ وفى الأصل «قبل تنزل فى الثرى» على حذف أن المصدرية .

(٢) فى الديوان : «صبرا بنى إسحق فيه تكرما»

ضاقت عليَّ الأرض فيــ * ـك وضقتُ بالإخوان ذَرْعا
ورَعيْتُ فيك النجم يا * من كانَ يحفَظُني ويَرْعى
أبكيك بالشعر الذى * قد رقّ حتى صار دمعا

وقال تاج الملوك بن أيوب يرثى أخاه :

لو كان يَشفى الدمعُ غُلّةَ واجد * لشفى غليلى فيضُ دمعى الهامرِ
هيهاتَ لا بردَ الغليلُ وقد ثَوىَ * من كان من عُدَدى وخير ذخائرى
يا للرجالِ لنَكبة قد أذهبتْ * جَلَدَ الجليدِ وحُسْنَ صبرِ الصابرِ
طرَقتْ فتىَ المَلكُ المعظَم فانثنى * من بعد بَهجته كَربع دائر

ومنها :

جبَلٌ هَوى فارتجّت الدنيا لهُ * فكأنّما ركِبت جَناحَىْ طائرِ

ومنها :

مَنْ للنَوائب يومَ تفترس الورى * قَســرًا بأنــياب لهـا وأظـــافر
أضحى وحيدًا فى التراب كأنه * ما سار بين مواكب وعساكر
قد كان لا تَعْصــى البريةُ أمـرَه * فانقـــاد ممتثلاً لأمـــر الآمـــرِ
مـــولاى دعـــوةً واله غـــادرتَه * وَقْفًا على نُوَب الزمان الغادرِ
هل من سبيل للزيارة عندها * هيهاتَ حال الموتُ دون الزائرِ
لو كان خَصمك غيرَ حادثة الرّدى * لرددـــتُه بذوابـــل وبواتـــرِ
أو كان يُدركُ ثأرُ من أودى به * رَيْبُ المَنون لكنتُ أوّلَ ثائرِ
لكنه الموتُ الذى قهَر الورى * من حيث لا تَثنيه قدرةُ قادرِ

وقال كمال الدين بن النبيه يرثى الأمير على بن الخليفة الناصر لدين الله :

الناس للموت كخيل الطِّراد * فالسابقُ السابقُ منها الجواد
والله لا يدعو إلى داره * إلا مَن استصلح من ذا العباد
والموت نقّادٌ ، على كفّه * جواهرٌ يَختار منها الجِياد
والمرء كالظلِّ ولابدّ أنْ * يزول ذاك الظلُّ بعد امتداد
لا تصلُحُ الأرواحُ إلا إذا * سرى إلى الأجسام هذا الفساد

أرغمتَ يا موتُ أُنوفَ القَنَا * ودُسْتَ أعناقَ السيوفِ الحداد
كيف تخرّمتَ أميرًا وما * أنجده كلُّ طويلِ النِّجاد
مصيبةٌ أذكتْ قلوبَ الورى * كأنما فى كلِّ قلبٍ زِناد
نازلةٌ عمت فمنْ أجلها * سنَّ بنو العبّاس لُبسَ السواد
مأتمةٌ فى الأرض لكن لها * عُرْسٌ على السبع الطِّباق الشداد
طرقتَ يا موتُ كريمًا فلم * يقنَعْ بغير النفس للضيفِ زاد
قصمتَه من سدرة المُنْتهى * غُصنًا فشُلّتْ يد أهل العِناد
يا ثالثَ السِّبطَين خلّفتنى * أهيم من همِّىَ فى كلِّ واد
يا نائمًا فى غَمَرات الردى * كحلْتَ أجفانى بميلِ السُّهاد
ويا ضجيعَ التُّرب أسقمتَنى * كأنما فَرْشِىَ شوكُ القَتَاد
دُفنتَ فى التُّرب ولو أنصفُوا * ما كنتَ إلاّ فى صميم الفُؤاد
خَليفةَ الله اصطبر واحتسبْ * فما وَهَى البيتُ وأنت العماد
فى العلمِ[1] والحلم بكم يُقْتَدى * إذا دجا الخطبُ وضَلّ الرَشاد
وأنت لُجُّ البحرِ ما ضرّهُ * أن سال من بعض نواحيه واد

ولما مات الإخشيد محمد بن طُغج رثاه جماعة من الشعراء منهم محمد بن الحسن بن زكريا فقال :

فى الرزايا روائعُ الأوجال * والبرايـــا دَريـئةُ الآجـــال
وكذا الليلُ والنهارُ اعتبارٌ * للورى فى تفكُّر الأحوالِ
كلُّ شيءٍ وإن تمادى مداه * قَصْرُه للفَناء أو للزَّوالِ
وأرى كلَّ عيشةٍ لأُناسٍ * كونُها مُؤذنٌ بوَشْك انتقالِ
كلُّ ذى جدَة ـ إذا ما الجديدا * ن ألحّا عليه ـ مُودٍ وبالِ
ما لخَلْقٍ من المَنون مَفَرٌّ * لا ولا دون بطشِها من مآلِ
كلُّ غيث الأيام إن أخلفَ الغيـ * ـث أطلّتْ سحابُه بانهمالِ
فَجعتَنا بواهب لا نراه * يَخْلُقُ الوجهُ عنده بابتذالِ
فجعتَنا ببهجة الأرض فى الأر * ض وشمسِ الضُّحى وبدرِ الليالى

(١) فى الأصل : « فالعلم والحلم » .

فجعتنا بمن حَمى حُرمة الإسـ * ـــلام من حـادث ومن ختّالِ
فجعتنا بالباســـل البَطَل السا * مى غداة الوغى إلى الأبطالِ
فجعتنا بالواهـــب المُجزِل المر * تـــاح حـين السـؤال للسُّؤّالِ
عجـــبٌ إذ دنتْ إلـــيه المنايا * وحمـــى عـزّه المنـــيعُ العالى
أين من يشترى المدائحَ والشكـ * ـــر بأسنى وَفْرٍ وأوفى نَوالِ
قطع الموتُ وَصْلَنا منه كرهًا ، * والـــرَّدى قاطـــعٌ لكـلّ اتّصالِ
رحمة الله والســـلام عليه * فى الضُّحـى والعشاء والآصالِ
وسقـــى الله حُفـــرةَ ضُمِّنَتْه * شكـــرَ واهٍ من الحَـــيَا هطّالِ

ثم خرج من الرثاء إلى مدح ابنه فقال :

إن خبا بدرُه فقد لاح للأمـ * ـــةِ لما خَبَا طلوعُ الهلالِ
نُوره مُشرِقٌ مُضىءٌ مدى الدهـ * ـــرِ منيرٌ. وليس ذا اضمحلالِ

وقال أبو الطيب المتنبى يَرثيه :

هو الزمانُ مُشتٌّ بالذى جمعا * فى كلّ يوم نرى من صَرْفه بِدَعا
لو كان ممتنعٌ تُغنيه مَنْعَتُه * لم يصنع الدهرُ بالإخشيد ما صَنَعا
ذاق الحمامَ فلم تدفَعْ كتائبه * عنه القضاءَ ولا أغناه ما جمَعا
لقد نَعَى من نعاه كلَّ مفتخَرٍ * وكلَّ جُود لأهل الأرض حين نَعى
لله ما حلّ بالإسلام حين ثَوى! * لقد وهى شَعْبُ هذا الدين فانصدعا
فمن تراه يقود الخيلَ ساهمةً * سدَّ الفضاء ومِلْءِ الأرض ما وَسعا
ترى الحُتُوفَ عُلوقاً فى أسنّته * لدى الوَغى وشهابَ الموت قد لَمعا
لو كان يسطيع قبرٌ ضمّه لسعى * إليه شوقاً ليلقاه وإن شَسَعَا
فليَعْجب الناسُ من لحد تضمّن من * تضمّن الرزقَ بعد الله فاضْطَلعا
لو يعلم اللحدُ ما قد ضمّ من كرمٍ * ومن فَخارٍ ومن نَعْماء لا تسعا
يا لَحْدَه إن تَضِقْ عنه فلا عجبٌ * فيه الحجا والنُّهى والبأسُ قد جُمعا
يا لحدُ طُلْ إنّ فيك البحر مُحتبسا * واللّيثَ منهصرا والجُودَ مجتمعا
يا يومَهُ لم تخُصّ الفجعَ أُسرَتَهُ * كلُّ الورى بردَى الإخشيد قد فُجِعا

يا يومه لم تدع صبراً لمصطبرٍ * ولم تدع مَدْمَعاً إلا وقد دَمَعا
أردى الرِّفاقَ رَدَى الإخشيد فانقرضوا * فما ترى منهُمُ فى الأرض متجعا
يأيهـا الملك المُخـلِي مجـالسَه * أحميتَ أعيننَا الإغماضَ فامتنعا

ومنها :

لئن مضيتَ حميدَ الأمر مفتَقَدا * لقد تركتَ حميدَ الأمر متَّبَعا

ثم خرج من الرثاء إلى مدح ولد الإخشيد :

ثَبْتُ الجَـنان فـلا نكْسٌ ولا وَرَعٌ * تلقـاه متَزِراً بالحـزم مُدرعا
أعطت أبا القاسم الأملاكُ بيعتَها * ولـو أبت أخـذت أسـيافُه البيَعَا
وانقـاد أعـداؤه ذُلا لهيبته * وظَلّ متبوعهم من خوفه تَبَعا
أضحـت به هِـمَمُ الغِلْمان عاليةً * كأن مولاهُمُ الإخشيدُ قد رَجَعا

وقال مُهَلْهِل بن يموت يَرثيه أيضا :

أىّ عزٌ مضـى من الإسـلام! * أىّ ركن أضحى حديثَ انهدام!
ذاق موتـاً محمـد بن طُغُـجٌ * هو ليثُ الشَّرى وغيثُ الغَمام
فَقَدَ النـاسُ مُـولِيَ الإنعـام * فهـُمُ سائمـون كالأنعـام
مات ربّ العـُلا وراعـى الرعايا * والسرايـا وكافـل الأيتام
أين ما كنتَ فيه من عِزِّك البا * ذخ والمُرْتقـى عـزيزِ المَرام!
أين ذاك الحجابُ والمُلك والهيـ * ـبةُ أين الزِّحـام وقت الزحام!
منَ أمـيرٍ وقـائدٍ وخطـيرٍ * ورئيـسٍ وماجـدٌ وهُمـام
كلّهم مطـرِقٌ لديـك من الهيـ * ـبة خوفَ الإجـلال والإعظام
أين تلك الخـيامُ حولك إن عُـرّ * سْتَ والأسدُ حـول تلك الخيام
من عديـد وعـُدّة لك ما بيـ * ـن قُعـود فيها وبين قيـام
لم يُطقْ جمعُهم دفاعَ الرّدى عنـ * ـك ولم يمنعوك منعَ اعتصام
أسلمتك الخيولُ قَسْراً وقد كنـ * ـت عليها سُوراً على الإسلام

خانك السيفُ وهو يصدُر عن أمـ * ـرك مُستعدياً بغير احتجام
خذل الرمُح وهو عونُك لو با * ن لقاءٌ وثار نَقْعُ قَتَام
لم تَرُدّ القِسيُّ عنك سهامَ الـ * ـحَتْف والحتفُ عندها فى السهام
ما وقتك الحِرابُ حربَ المنايا * حين وافاك جيشُها من أمام
لم يُحَصنك ما اقتنيتَ من الآ * لات من جَوْشَن ولا من لام(١)
حكم الموتُ فيك من بعد ما كنـ * ـتَ تُرى حاكماً على الحُكّام
فقدتْكَ الفُسطاط وجداً مدى الدهـ * ـر ومن بعدها بلاد الشام
فُجعت يَثْرِبٌ ومكّةُ والبيـ * ـت إلى زمزمٍ.اجَلْ والمَقام
عمَّ فيك المُصابُ فاشترك العا * لَمُ فى الُرزء منه والآلام
حسبنا الله عزّ من حكَم يجـ * ـرى على الحاكمين بالأحكام
كلُّ شىء إلى زوال ، ومن ذا * نال مُلكَ الدنيا بغير اخترام
أين أين الملوك فى سالف الدّهـ * ـر دَهَتهم حوادث الأيّام
أين من قد كانوا يُخافَون فى البأ * سِ ويُرْجَون للعطايا الجِسام
ليس يبقى إلا الإله تعالى * مَنْ له الملك ثابتًا بالدّوام
أيَهذا الأمير بل يا أبا القا * سم يا بن السمَيْدَع القَمْقام
إرض حكم الإله فى المَلِك الما * ضى وسلّم لنافذ الأحكام
وهَناك الذى بلغتَ من الأمـ * ـر وما حزتَه بحسن انتظام
ما كمثل الذى رُزِئت ولا مثـ * ـل الذى قد مَلكتَ فى ذا العام
أنت مثل الإخشيد فانهض بما مُلِّـ * ـكتَ بالجدّ منك والإعتزام

وقال بعض الشعراء يَرثى الوزير يعقوب بن كِلّس وزير العزيز بن المُعِزّ خليفة مصر :

إن التصبُّرَ فى الأمور جميلُ * إلا عليك فما إليه سبيلُ
يا حاملا ثِقَلَ العُلا وكأنه * لعُلوّ همّته بها محمولُ
يا واهبًا فوق المُنى وكأنه * لسخائه مما يجود بخيلُ

(١) لام : مخفف «لأم» جمع «لأمة» وهى الدرع .

جاء منها :

يا تُرْبُ لا تأكل لساناً طالما * وَالى به التحميدُ والتهليلُ
يا تُرْبُ لا تَعْنُفْ بكفٍّ طالما * قد كان يُؤلم ظهرَها التقبيلُ

ومنها :

يا دهرُ تعلمُ ما جنيتَ على الورى؟ * خَطْبٌ لعمرُك إن علمتَ جليلُ
ما كان ضرَّك لو مَهَلت بمثله * يا دهرُ إنك بعدها لَعَجولُ

ومن المراثى المشهورة التى عُنى بها واتّصلت أسباب الشارحين بسببها : المرثَية العُبْدونّية التى نظمها الوزير الكاتب أبو محمد عبد المجيد بن عبدون يَرثى بها بنى مسلمة المعروفين ببنى الأفطس ، وهى من أمهات القصائد ووسائط القلائد ، فإنه ذكر فيها عدّة من مشاهير الملوك والخلفاء والأكابر ممن أبادهم الدهر بحوادثه ونكباته ، ووثب عليهم الزمن فما وجدوا جُنَّةً تَقيهم من وثَبَاته ؛ ودبّت عليهم الأيّام بصروفها ، وسقتهم المنيّة بكأس حُتوفها . وها نحن نذكرها ونزيدها تبيانا بشرح من استبهَمَت أخبارُه ، وخَفِيت على المُطالِع آثارُه .

وأوّل القصيدة :

الدّهرُ يفجَعُ بعد العَيْنِ بالأثَرِ * فما البكاءُ على الأشباح والصُّوَرِ
أنهاك أنهاك لا آلُوكَ مَعْذِرَةً * عن وقفة بين ناب اللّيث والظُّفُرِ
فالدهرُ حرْبٌ وإن أبدى مُسالَمةً * فالبيضُ والسُّمْرُ مثلُ البِيضِ والسُّمُرِ
ولا هَوادةَ بين الرأس تأخذه * يدُ الضِّراب وبين الصارم الذّكَرِ
فلا تغُرَّنْك من دنيا نومتُها * فما صناعةُ عينيها سوى السّهَرِ
ما لليالى - أقال الله عَثْرتنا * من الليالى وخانتها يدُ الغِيَرِ -
فى كلِّ حينٍ لها فى كلِّ جارحة * منّا جراحٌ وإن زاغت عن البصرِ؟
تَسُرُّ بالشيء لكن كى تَغُرَّ به * كالأيْم(١) ثار إلى الجانى من الثمرِ
كم دولةٍ ولِيتْ بالنصر خدمتَها * لم تُبْقِ منها! وسَلْ ذكراك من خَبَرِ

---

(١) الأيم : الأفعى .

هوت «بدارا» وفَلَّت غَرْبَ قاتله * وكان عَضْباً على الأملاك ذا أُثُرِ

« دارا » الذى ذكره هو دارا آخر ملوك الفرس ؛ وقاتله الإسكندر

واستَرْجعت من بنى ساسان ماوَهَبت * ولم تَدَعْ لبنى يونان من أثَرِ

بنو ساسان هم الفرس الأُخَر ولهم دولة مشهورة انقرضت فى الإسلام . وبنو يونان أيضا من الملوك أرباب الدول المشهورة ، ومن مشاهير ملوكهم الإسكندر ابن فِيلِبُّس .

واتْبَعَتْ أُختَها طَسْماً ، وعاد على * عادٍ وجُرْهُمَ منها ناقضُ المِرَرِ

أخت طسم جَدِيس ، وهما أبناء عم كثر نسلهما وهم العرب العاربة ، وعاد هم قوم هود . وجرهم هو ابن عوف بن زُهَير بن أنس بن الهَمَيْسع بن حمْيَر بن سَبَأ الأكبر بن يَشْجُب بن يَعْرُب بن قَحْطان ، وقيل : إن العمالقة من ولد جرهم . أراد بذكرهم أنهم كلّهم أبادهم الموت .

وما أقالت ذوى الهيئاتِ من يَمَنٍ * ولا أجارتْ ذوى الغاباتِ من مُضَرَ

اليمن كلّهم باتفاق العلماء بالأنساب من ولد قحطان ، ومُضَر بن نِزار بن مَعَدّ بن عَدْنان .

ومزّقت سَبَأً فى كل قاصيةٍ * فما التقى روائحٌ منهم بُمبْتَكِرِ

سبأ الذى أشار إليه هو سبأ بن يَشْجب بن يعرُب بن قحطان ، واسمه عبد شمس ، وإنما قيل فيه سبأ لأنه أوّل من أدخل بلاد اليمن السبى ، وكان له عشرة أولاد سكن الشأم منهم أربعة وهم لَخْم وغسان وجُذام وعاملة ، وسكن اليمن منهم ستة : كندة ومذحج والأزد وأنمار (١) ؛ وقد ذكر الله عز وجل تمزيقهم بقوله : ﴿ وَمَزَّقْنَاهُمْ كُلَّ مُمَزَّق ﴾

---

(١) لم يذكر فى الأصل سوى هؤلاء الأربعة وترك بياضا بمقدار ما يسع الاسمين =

وأنفذتْ في كُليبٍ حكمها ورَمَتْ * مُهَلْهِلا بين سمع الأرض والبصر

كُلَيب الذى ذكر هو كليب بن ربيعة بن الحارث الذى ضرب به المثل فقيل: «أعز من كليب وائل» وأشار ابن عبدون فى هذا البيت إلى ما كان من قتل جساس بن مرة كليبا وما وقع بين بكر وتغلب من الحروب . وقوله «ورمت مهلهلا بين سمع الأرض والبصر» كأنه أراد ما حكى أنه قتل فى موضع لم يطلع عليه أحد(١) ؛ وهو مثل ، يقال : فعل كذا وكذا بين سمع الأرض وبصرها إذا فعله خاليا .

ولم تَرُدّ على الضِلّيل صِحتَه * ولا ثَنَت أسَدًا عن ربِّها حُجُرُ

الضليل الذى أشار إليه هو امرؤ القيس بن حجر بن الحارث بن عمرو ، والحارث هو آكل المرار ؛ وسمى امرؤ القيس بالضليل لأنه ترك ملكه وتوجه إلى قيصر يطلب منه جيشا يأخذ به ثأر أبيه من بنى أسد . وإشارته إلى الصحة لقول امرئ القيس فى قصيدته السينية :

وبُدِّلتُ قُرحاً دامياً بعد صحة * لعل مَنَايانا تحوّلْنَ أبْؤسا
لقد طمح الطماح من بُعدِ أرضهِ * ليلبسنى من دائه ما تلبّسا

والطماح رجل من بنى أسد أرسله قيصر إلى امرئ القيس بحُلة مسمومة ، فلما لبسها تقطع ومات بأنقرة . وإشارته إلى أسد لأن بنى أسد كانوا قتلوا حُجر

= الباقين ، والأصل منقول عن شرح هذه القصيدة لابن بدرون بالحرف الواحد ولم يذكرهما هو أيضا، وفى كتاب المعارف لابن قتيبة ان أولاد سبأ بن يشجب هم حمير وكهلان وعمر والاشعر وأنمار وعاملة ومرّ . ولعل شارح هذه القصيدة أراد بهؤلاء العشرة فروعه مطلقا ولهذا لا يمكننا تعيين الاثنين الباقين بالضبط .

(٢) العكس هو الصحيح . وهو أن تحت السمع والبصر كناية عن معرفة الناس لما حدث .

ابن الحارث يوم ما قط :

ودوّخت آل ذُبيانٍ وإخوتَهم * عَبْساً ، وعضّت بنى بَدْرٍ على النهرِ

أشار إلى ما كان بين عبس وذبيان من الحروب بسبب داحس والغبراء .

والحقت بعدىٍّ بالعراق على * يد ابنه أحمرَ العينين والشعَرَ

أراد عدىّ بن زيد بن أيوب بن زيد مَناة بن تميم الشاعر . وأحمر العينين والشعر هو النُّعمان بن المنذر ، وكان عدىّ هذا ترجمانا لأبرويز وكاتبه بالعربية، فلما مات قابوس بن المنذر تلطّف عدىّ وتحيّل على أبرويز حتى ولّى النعمان إمرة العرب وقدمه على إخوته وكان أدمّهم ، ثم اتهمه النعمان أنه وشى به ، فاحتال عليه حتى ظفر به وحبسه ثم قتله بالعراق ؛ فتلطف ابنه زيد بن عدىّ وتوصل حتى خدَم أبرويز على عادة أبيه ، وأوقع بين أبرويز والنعمان حتى قتله أبرويز .

وأشرفت بخُبيبٍ فوق فارعةٍ * والصقت طلحَةَ الفيّاضَ بالعَفَرِ

أشار إلى خبيب بن عدىّ الأنصارىّ وهو بَدْرىّ وأُسِر فى السريّة التى خرج فيها مَرْثَد بن أبى مَرْثَد فانطلق به المشركون إلى مكّة واشتراه حجر بن إهاب التميمىّ حليف بنى نَوْفل لعقبة بن الحارث بن نوفل ليقتله بأبيه ، وكان خبيب قتل الحارث أبا عقبة يوم بدر ، فصلبه عقبة على خشبة بالتّنعيم وقتله . وطلحة الفياض هو طلحة ابن عبد الله التميمىّ أحد العشرة أصحاب رسول الله ﷺ ، قتل يوم الجمَل .

ومزّقت جعفراً بالبيضِ ، واختلست * من غيلهِ حَمْزَةَ الظّلامَ للجُزُرِ

جعفر الذى ذكره هو جعفر بن أبى طالب أخو علىّ رضى الله عنهما قُتل فى غزوة مؤتة . وحمزة هو ابن عبد المطلب عمّ رسول الله ﷺ وقتل يوم أحد قتله وحشىّ غلام جُبَير بن مُطْعِم؛ وجعله ظَلاّما للجزر. أى وصفه بالكرم.

وبلَّغَتْ يَزْدَجِرْدَ الصِّينَ واختزلتْ * عنه سوى الفُرسِ جمعَ التُّرك والخَزَرِ
ولم تَرُدَّ مواضى رُسْتَمٍ وَقَنَا * ذى حاجبٍ عنه سَعْداً فى ابنة الغِيَرِ

يزدجرد الذى ذكر هو ابن شهريار آخر الملوك الساسانية ، ورستم هو الأرمينىُّ وهو الذى قاتل سعد بن أبى وقاس وقتل يوم القادسية .

وخَضَّبت شَيْبَ عُثمانٍ دَماً ،وخَطَتْ * إلى الزُّبَيْرِ ، ولم تستَحْيِ من عُمَرِ

أشار فى هذا البيت إلى مقتل عمر بن الخطاب وعثمان بن عفان والزبير بن العوام رضى الله عنهم .

وما رَعَتْ لأبى اليَقْظانِ صُحْبَتَه * ولم تُزَوِّدْه إلاّ الضَّيْحَ فى الغُمَرِ

أبو اليقظان هو عمّار بن ياسر العَنْسىّ قتل بِصِفِّين وكان مع علىّ ؛ وعنه قال رسول الله ﷺ : « تقتل عمارا الفئة الباغية » ولما قتل كانت الراية يومئذ بيده فعطش فدعا بشربة من الماء فأتى بضيحة (١) فشربها ثم قال : أخبرنى رسول الله ﷺ أن اللبن آخر شربة أشربها فى الدنيا ؛ فقتل يومئذ رضى الله عنه

وأجزرتْ سيفَ أشقاها أبا حَسَنٍ * وأَمْكَنَتْ من حُسَيْنٍ راحتَىْ شَمِرِ

أشقاها هو عبد الرحمن بن مُلْجَم المُرادىّ قاتل علىّ بن أبى طالب رضى الله عنه لقوله ﷺ : « يا علىّ ، أشقاها الذى يخضب هذه من هذه » وأشار إلى لحية علىّ ورأسه . والحسين الذى ذكره هو الحسين بن علىّ . وشَمِر هو شمر ابن ذى الجَوْشن وهو الذى أرسله عُبيد الله بن زياد إلى عمر بن سعد يحرِّضه على قتل الحسين ؛ وقيل : إن شمرا لم يباشر قتل الحسين ، والذى قتله سِنان بن أبى أنس النخَعىّ ، وشمر فهو المُجْهز والمحرِّض على قتله ؛ فلذلك ذكره .

(١) الضيحة : الشربة من الضياح أو الضيح بالفتح فيهما : اللبن الرقيق المزوج .

وليتها إذ فَدَتْ عَمْراً بخارجةٍ * فدت علياً بمن شاءت من البَشَرِ

عمرو الذى أشار إليه هو عمرو بن العاص بن وائل بن هشام بن سعيد بن سهم بن عمرو بن هُصَيْص بن كعب ، أمير مصر لمعاوية بن أبى سفيان . وخارجةُ رجل من سهم بن عمرو ؛ وكان من خبره : أن الخوارج كانت قد اجتمعت على قتل علىّ ومعاوية وعمرو ، فكان الذى انتدب لقتل عمرو زادويه مولى بنى العنبر ، ورصده إلى ليلة الميعاد التى اتفقوا على الفتك بهم فيها ، فاشتكى عمرو تلك الليلة من بطنه ولم يخرج للصلاة واستخلف خارجة ليصلى بالناس ، فلما قام فى المحراب وثب عليه زادويه وهو يظنّ أنه عمرو بن العاص فقتله ؛ وأُخذ زادويه وأُدخل على عمرو ،فسمع الناس يخاطبونه بالإمرة فقال : أو ما قتلت عمرا؟ قيل له : لا إنما قتلت خارجة ، فقال : « أردت عمراً وأراد الله خارجة » فلذلك قال : « وليتها إذ فدت عمرا بخارجة » .

وفى ابن هند وفى ابن المصطفى حَسَنٍ * أتتْ بمُعْضلة الألباب والفكَرِ
فبعضُنا قائل : ما اغتاله أحدٌ * وبعضنا ساكتٌ لم يُؤْتِ من حَصَرِ

ابن هند الذى أشار إليه هو معاوية بن أبى سفيان ، أراد ما كان بينه وبين الحسن بن علىّ فى أمر الخلافة . وأراد بالبيت الثانى ما وقع الاختلاف فيه من أن الحسن مات مسموما وأن معاوية وعد زوجة الحسن جَعْدَة بنت قيس الكندى بمائة ألف درهم ويزوجها لابنه يزيد إن قتلت الحسن ، ففعلت وسمّته ؛ ولما مات الحسن وَفَى لها بالمال وقال : حب حياة يزيد منعنى تزويجه منك ؛ وقيل مات الحسن حتف أنفه . والله أعلم .

وعمّمت بالرّدى فَوْدَىْ أبى أنس * ولم تَرُدّ الرّدى عنه قَنَا زُفَر

أبو أنس هو الضحّاك بن قيس الفهْرىّ . يشير إلى ما وقع بينه وبين مروان ابن الحكم بمرج راهط ، وكان الضحّاك يدعو لابن الزبير فقتل الضحاك ، وكان زفر بن الحارث الكلابىّ مع الضحاك ؛ ففرّ عنه .

وأرْدَتِ ابنَ زِيادٍ بالحسين فلم * يَبُؤْ بشِسْعٍ له قد طار أو ظُفُرِ

أشار إلى عُبيد الله بن زياد بن أبيه عامل يزيد بن معاوية على العراق ، وهو الذى جهزّ عمر بن سعد لحرب الحسين بن علىّ رضى الله عنهما . وقوله «يبؤ بشسع له » أخذه من قول مهلهل حين قتل بجير بن الحارث وقال : بُؤْ بشِسْعِ نعل كُلَيْب .

وأنزلت مُصْعَباً من رأس شاهقةٍ * كانت به مُهْجَةُ المختار فى وَزَرِ (١)

أشار إلى مصعب بن الزبير بن العوّام وقتله ؛ والشاهقة هى الكوفة جعلها شاهقة لَمَنْعتها وكثرة رجالها ، وأراد ما كان بين مصعَب وعبد الملك بن مروان من الحرب التى قُتل فيها مصعب . والمختار الذى ذكره هو المختار بن أبى عُبَيد ابن مسعود بن عمرو الثقفىّ ، أشار إلى ما كان بينه وبين مصعب من الحرب وقتلِ المختار .

ولم تُراقِبْ مكانَ ابن الزُّبَيْرِ ولا * راعتْ عِياذَتَهُ بالبيت والحَجَرِ

أراد عبد الله بن الزبير ، وكان يسمَّى العائذ لأنه كان يقول : أنا العائذ بالبيت ، وقتله الحجّاج بن يوسف الثقفىّ لما وجّهه عبد الملك لحربه .

ولم تدعْ لأبى الذبّان قاضيَهُ * ليس اللّطيم لها عمروٌ بمُنتصِرِ

أبو الذبّان هو عبد الملك بن مروان بن الحكم ، سُمِّى بذلك لبَخَره . وقوله « قاضيه » لأنه كان مظفراً على أعدائه فإنه غلَب من كان يناوئه فى سلطانه مثل عبد الله ومصعب ابنى الزبير ، وعمرو بن سعيد ، وعبد الرحمن ابن الأشعث ، ما منهم إلا من قُتل وحكَم فيه قاضيه وهو سيفه ، ولم يُغْنِ ذلك عنه لمّا أتته منيّته . وأما اللطيم فهو عمرو بن سعيد الأشدق ، سُمِّى بذلك لَمِيَلٍ كان فى فمه فقيل له من أجله : لطيم الشيطان ، وقتله عبد الملك بن مروان.

(١) الوزر : الملجأ والمعتصم .

وأظفَرتْ بالوليدِ بن اليزيدِ ولم * تُبْقِ الخلافةَ بين الكأس والوَتَرِ

الوليد هذا هو الوليد بن يزيد بن عبد الملك ، وهو الذى يقال له : الجبّار العنيد ؛ أشار إلى ظَفَر يزيد بن الوليد بن عبد الملك به وقتله . وقوله ولم تبق الخلافة بين الكأس والوتر ، أراد بذلك ما كان عليه الوليد من الاشتهار باللهو واللعب .

ولم تُعِدْ قُضُبَ السفّاح نابيةً * عن رأس مَرْوانَ أو أشياعه الفُجُرِ

السفّاح هو أبو العبّاس عبد الله بن محمد بن علىّ بن عبد الله بن عباس، وهو أوّل خلفاء الدولة العباسية ، يشير إلى ظفره بمروان بن محمد وقتله ، وانقراض دولة بنى أمية وقتلهم على يديه .

وأسبلتْ عَبَراتِ للعيون على * دمٍ بفَخٍّ لآل المصطفى هَدَرِ

أشار فى هذا البيت إلى ذكر من قتل بفخّ وهم الحسين بن علىّ بن حسن ابن حسن بن علىّ ، والحسن بن محمد بن الحسن بن الحسن بن علىّ ، وعبد الله بن إسحاق ابن إبراهيم بن الحسن بن الحسن .

وأشرقتْ جعفراً والفضلُ يَنْظُره * والشيخُ يحيى بريق الصارمِ الذَّكَرِ

أشار فى هذا البيت إلى قتل جعفر بن يحيى بن خالد بن بَرْمَك ونكبة البرامكة فى أيّام الرشيد .

وأخفرتْ فى الأمينِ العهدَ،وانتدبت[1] * لجعفرِ بابنه والأعبُدِ الغُدُرِ

الأمين هو محمد بن هارون الرشيد ؛ يشير إلى ما كان بينه وبين أخيه المأمون وإلى العهد الذى كان الرشيد كتبه بينهما . وجعفر الذى أشار إليه هاهنا هو المتوكّل ابن المعتصم ، أراد ما كان من قتل باغر التركىّ له بمواطأة من ابنه

(١) كذا فى شرح القصيدة العبدونية لابن بدرون ، وفى الأصل : « وانتبدت» .

المنتصر .

ورَوَّعتْ كلَّ مأمونٍ ومؤتمنٍ * وأسلمت كلَّ منصور ومُنْتصرِ

المأمون هو عبد الله بن الرشيد وهو أوّل من لُقّب بالمأمون ، ولُقّب به بعد ذلك ولد من أولاد المعتمد بن عبّاد ويحيى بن ذى النون صاحب طُلَيْطلَة . والمؤتمن فأوّل من لقّب به مروان بن الحَكَم على قول من يقول إنه كان لبنى أميّة ألقاب ، ثم لُقّب به القاسم بن الرشيد . وكان الرشيد لما كتب العهد بين الأمين والمأمون جعل ابنه المؤتمن بعد المأمون ، وجعل أمر المؤتمن إلى أخيه المأمون إذا أفضت الخلافة إليه إن شاء أمضاه وإن شاء خلعه ، فلمّا أفضت الخلافة إلى المأمون أزال المؤتمن فارتاع لذلك . وتلقّب بالمؤتمن محمد بن ياقوت مولى المعتضِد صاحب فارس ، وتلقّب به سلامة الطولونىّ ، وعبد العزيز بن عبد الرحمن بن أبى عامر ثم تَسَمّى بالمنصور . وأما المنصور فأوّل من لقّب به هشام ابن عبد الملك بن مروان ـ على تلك الرواية ـ ثم المنصور أبو جعفر عبد الله بن علىّ العباسى ، ثم أبو طاهر إسماعيل بن القائم بن المهدىّ صاحب أفريقية ، ثم محمد بن أبى عامر بالأندلس ، وتلقّب به بن زيرى الصِّنْهاجىّ ، وتلقّب به سابور صاحب بَطَلْيُوس ، وعبد الله بن محمد بن مسلمة التُّجيبىّ ، وحفيده يحيى بن محمد بن عبد الله ، وعبد العزيز بن أبى عامر ، ثم تلقّب به جماعة من الملوك بعد نظم هذه المرثيةَ . وأما المنتصر فهو محمد بن المتوكل ؛ وممن تلقّب بالمنتصر مِدْرار بن اليَسَع صاحب سِجِلْمَاسَة . وكلّ هؤلاء أبادهم الموت.

واعثرتْ آل عبّاس ـ لَعاً لَهُمُ ـ * بزيْل زبّاء[1] من بِيضٍ ومن سُمُرِ

أشار فى هذا البيت إلى ما كان من تغلُّب الأتراك والدَّيْلم على خلفاء الدولة العباسية حتى لم يبق لهم إلا اسم الخلافة . وقوله : بذيل زبّاء من بيض ومن سمر ؛ تنبيهاً على كثرة عدد المتغلّبين على الأمر وقدرتِهم على السلاح .

(١) الزباء : الداهية الشديدة .

ولا وَفَتْ بعهود المُستعينِ ولا * بما تأكَّدَ للمعتَزِّ من مِرَرِ

المستعين هو أحمد بن المعتصم العباسى ، أشار إلى ما كان من قيام المعتز على المستعين وهرب المستعين من سامُرّا إلى بغداد . والمعتز هو أبو عبد الله محمد بن المتوكل .

وأوثقتْ فى عُراها كلَّ مُعتَمِدِ * وأشرقَتْ بقَذاها كلَّ مُقتدرِ

المعتمد هو أبو العباس بن المتوكل ، وهو أول من لُقب بهذا اللقب ، وتلقّب به محمد بن عبّاد بإشبيلية . والمقتدر هو أبو الفضل جعفر بن المُعتضد ، وهو أول من لُقّب بالمقتدر ، ثم لُقّب به أحمد بن سليمان بن هود الجُذامى بسرقسطة . ثم أخذ ابن عبدون فى رثاء بنى الأفطس فقال :

بنى المظَفّرِ والأيامُ ما بَرِحَتْ * مَراحلا والورى منها على سَفَرِ
سُحْقا ليومِكُمُ يوما ولا حملتْ * بمثله ليــــلةٌ فى مُقـــبلِ العُمُرِ
من للأسِرَّةِ أو مَن للأعنّة أو * مَن للأســـنَّة يُهْديها إلى الثُّغَرِ
من للبراعةِ أو من لليراعة أو * من للسماحة أو للنفـــع والضَّرَرِ
أو رَفْعِ كـــارثة أو دفــــعِ آزفة * أو قمعِ حادثة تَعْيَا على القدر
من للظُّبى وعَوَالِى الخَطِّ قد عُقِدتْ * أطرافُ أَلسُنـــــها بالعِىِّ والحَصَرِ
وطُوِّقَت بالثـــنايا السُّودِ بيضُهُمُ * أَعجِبْ بذاك وما منها سوى ذَكَرِ
وَيْحَ السماح وويح الجُود لو سَلِما * وحسرة الدين والدنيا على عمرِ!
سقت ثرى الفضلِ والعباس هامِيةٌ * تُعزى إليهم سَماحا لا إلى المطرِ
ثلاثة ما ارتقى النسران حيث رَقَوا * وكلُّ ما طار مِنْ نَسْرٍ ولم يَطِرِ
ثلاثة ما رأى العَصْرانِ مثلَهُمُ * فضلا ولو عُزِّزَا بالشمس والقمرِ
ومرّ من كــــلّ شىء فيه أطيبُهُ * حتى التمتُّعُ بالآصـــالِ والبُكَرِ
من للجلال الذى عمّت مهابَتُهُ * قلوبَنا وعــــيونَ الأنجـــمِ الزُّهُرِ
أين الإباءُ الذى أرسَوْا قَواعده * على دعائمَ من عِزٍّ ومن ظَفَرِ !
أين الوفاءُ الذى أصفَوْا مشاربَه * فلم يَرِدْ أحدٌ منها على كَدَرِ!

كانوا رواسىَ أرض الله ، منذ نأوْا * عنها استطارت بمن فيها ولم تقرِ
كانوا مصابيحها فمذ خَبَوْا غَبَرتْ * هذى الخليقةُ يالله فى سَدرِ
كانوا شَجَا الدهرَ فاستهوتهُمُ خُدَعٌ * منه بأحلام عاد فى خُطًا الخَضِرِ
مَنْ لى ولا مَن بهم إن اطْبقتْ محَنٌ * ولم يكن وردُها يُفضِى إلى صَدَرِ؟
من لى ولا من بهم إن اظلمت نُوَبٌ * ولم يكن ليلُها يُفضى إلى سَحَرِ؟
من لى ولا من بهم إن عُطِّلت سُنَنٌ * وأُخفيت السُنُ الأيّام والسِّيَرِ؟
على الفضائل إلا الصبرَ بعدهُمُ * سلامُ مُرتَقِبٍ للأجر مُنتظرِ
يرجو عسى ، وله فى أختها طَمَعٌ * والدهرُ ذو عُقَبٍ شتَّى وذو غِيَرِ
قرّطتُ آذانَ مَن فيها بفاضحة * على الحسان حَصَى الياقُوتِ والدّرَرِ

ومن أجود الرثاء وأصنعه وأتقنه وأبدعه ؛ مراثى أبى تمام حبيب بن أوس الطائى . فمن ذلك ما قاله يرثى به غالب بن السعدىّ .

هو الدهر لا يُشْوِى وهنّ المصائبُ * وأكثر آمـــالِ الرجـــالِ كواذبُ
فيا غالـــبا ، لا غـالبٌ لرزية * بل الموت لا شكّ الذى هو غالبُ
وقلتُ:أخى ، قالوا: أخٌ من قرابة؟ * فقلت لهـــم : إن الشُّكُولَ أقاربُ
نسيبىَ فى رأىٍ وعـــزمٍ ومَنْصِبٌ * وإن باعـــدتنا فى الأصول المَناسبُ
كأن لم يقل يومـــا : كأن ، فتنثنى * إلى قوله الأسماعُ وهى رواغب
ولم يصدَع النـادى بلفظة فَيْصَلٍ * سِنانيّةٍ فى صَفْحـــتيها التجارِبُ

ومنها:

مضى صاحبى واستخلف البثّ والأسى * علىّ ، فَلى من ذَا وهاذاك صاحبُ
عجبْتُ لصبرى بعده وهو ميّتٌ * وكنتُ امرأً أبكى دما وهو غائبُ
على أنها الأيام قد صِرْنَ كلُّها * عجائب حتّى ليس فيها عجائبُ

وقال يرثى محمد بن الفضل الحِميَرىّ :

ريبُ دهرٍ أصمّ دون العِتابِ * مُرْصَدٌ بالأوجالِ والأوصابِ

جَفَّ دَرّ الدنيا فقد أصبحت تكـ * ـتالُ أرواحَنا بغـير حســاب
لو بدتْ سافرا أُهينتْ ولكن * شَغَفَ الخَلْقَ أنَّـها فى النِّقاب
إنّ ريبَ الزمان يُحْسِن أن يُهـ * ـدى الرزايا إلى ذوى الأحساب
فلهذا يجـفُّ بعـد اخضرارٍ * قبل روض الوهادِ روضُ الروابى

جاء منها :

ذهبتْ يا محـمدُ الغـرُّ مـن أيـ * ـامك الواضحـات . أىَّ ذَهاب
عبَس اللحدُ والثرى منك وجها * غير مـا عابـسٍ ولا قَطـّاب
أطفأ اللحـدُ والـثرى لُبـك المسـ * ـروج فـى وقت ظلـمة الألباب
وتبدلْـتَ مـنزلا ظـاهرَ الجدْ * ب يُسَمـَّى مُقطـعَ الأسـبابِ
منزلا مُوحِـشا وإن كـان معمو * را بجُلّ الصـديق والأحباب
يا شهـابا خـبَا لآلِ عُبيـد الله * أعْزِزْ بفقـد هـذا الشهـاب

ومنها :

أنزلتْه الأيـامُ عن ظهرها من * بعد إثـبات رجـله فى الرِّكاب
حين تمّ الشباب واغتدت الدنـ * ـيا إلـيه مفـتوحةَ الأبواب
وحكى الصارمَ المُحَلَّى سـوى أ * نّ حـُلاه جـواهرُ الآداب
قصـدتْ نحوَه المـنيّةُ حـتّى * وهبت حُسـنَ وجـه للـتراب

وقال يرثى إسحاق بن أبى ربْعِىّ :

أىُّ ندى بين الثرى والجُيُوب * وسُؤْدُدٍ لَدْنٍ ورأى صليب
يا بن أبى رِبْعىّ استُقْبِلَتْ * من يومك الدنيا بيومُ عصيبِ
شق جيوبا من أناسٍ لو اسـ * ـطاعوا لشقُّوا ما وراء الجيوبِ
كنتَ على البعد قريبا فقد * صرتَ على قربك غيرَ القريبِ
راحت وفودُ الأرضِ عن قبره * فارغةَ الأيدى مِلاءَ القلوبِ
قد عَلِمَتْ ما رُزِئتْ إنما * يُعرَف فقدُ الشمس بعد المغيبِ

إذا البعيدُ الوطن انتابه * حلَّ إلى نهى وواد خصيب
أدنته أيدى العيس من ساحة * كأنها مَسْقط رأس الغريب
أظلمت الآمال من بعده * وعُريت من كل حُسن وطيب
كانت خُدوداً صقلت بُرهةً * واليوم صارت مألفاً للشحوب
كم حاجة صارت رَكوباً به * ولم تكن من قبله بالركوب
حلّ عقاليها كما أطلقت * من عُقد المُزنة ريح الجنوب
إذا تيممناه فى مطلب * كان قليباً ورشاء القليب
ونعمة منه تسربلتها * كأنها طُرة بُردٍ قشيب
من اللواتى إن ونى شاكر * قامت لمسديها مقام الخطيب
متى تنخ ترحل بتفضيله * أو غاب يوماً حضرت بالمغيب
فما لنا اليوم ولا للعُلا * من بعده غير الأسى والنحيب

وقال يرثى أحمد بن هارون القرشىّ :

دأب عينى البكاء ، والحزن دابى * فاتركينى ـ وُقيت مابى ـ لما بى
سأجزّى بقاء أيام عُمرى * بين بثى وعبرتى واكتئابى
فيك يا أحمد بن هارون خصت * ثم عمت رزيتى ومصابى
فجعتنى الأيام فى الصادق النطق * فتى المكرمات والآداب
بخليلٍ دون الأخلاء لا بل * صاحبى المصطفى على أصحاب
أفلما تسربل المجد واجتا * ب من الحمد أيما مجتاب،
وتارءته أعين الناظريه * قمراً باهراً ورئبال غاب،
وعلا عارضيه ماء الندى الجا * رى وماء الحجا وماء الشباب،
أرسلت نحوه المنية عيناً * قطعت منه أوثق الأسباب؟

وقال يرثى أبا الصقر :

لو صُحح الدمع لى أو ناصح الكمد * لقلما صحبانى الروح والجسدُ
خان الصفاء أخ خان الزمان له * أخاً فلم يتخوّن جسمه الكمدُ

تساقُطُ الدمع أدنى ما بُليتُ به * للوجد إذ لم تَساقَط مُهجة ويدُ
فوالذى رتكت تطوى الفجاج له * سفائن البر فى خدّ الثرى تخدُ
لأنفدن أسى إن لم أمت أسفاً * وينفدُ العُمر بى أو ينفد الأمدُ
عنى إليك فإنى عنك فى شُغُلٍ * لى منه يوم سَيُبلِى مهجتى وغد
وإنّ بجريةً نابت جارت لها * إلى ذُرى جلدى فاستؤهل الجلد
هى النوائب فاشجى أوفعى عظةً * فإنها شجر أثمارها رشدُ
هُبى ترى قلقا من تحه أرق * يحدوهما كمدُ يحنو له الجسد
صماء سم العدا فى جنبها صربُ * وشُرب كأس الردى فى ظلها شهد
هناك أم النهى لم تود من حزنٍ * ولم تجد لبنى الدنيا بما تجدُ
لو يعلم الناس علمى بالزمان وما * عاشت يداه لما ربُّوا ولا ولدوا
لا يُبعد الله ملحودا أقام به * شخصُ الحجا وسقاه الواحدُ الصمدُ
يا صاحب القبر ، دعوى غير متئب * إن قال:أودى الندى والبدر والأسد
بات الثرى بأخى جذلان مبتهجاً * وبت يحكم فى أجفانى السُّهد
لهفى عليك وما لهفى بمُجديةً * ما لم يزرك بنفسى حرٌّ ما أجد
أمسى أبو الصقر يعفو الترب أحسنه * دونى ودلو الردى فى مائه يرد!
ويل لأمك ، أقصر إنه حدثُ * لم يعتقد مثله قلب ولا خلد
عاق الزمان شقيق الجود لم يقه * أهلُ ولم يفده مال ولا ولدُ
حين ارتوى الماء وافترت شبيبته * عن مضحك للمعالى ثغره برد
وقيل : أحمدها،بل قيل: أمجدُها * بل قيل : أنجدها إن فرت النجد
رؤد الشباب كنصل السيف لاجعد * فى راحتيه ولا فى عُوده أودُ
سقى الحبيس ومحبوساً ببرزخه * من السمِى كغيث الودق يطرد
بحيث حلَّ أبو صقر فودعه * صفو الحياة ومن لذاتها الرغد
بحيث حل فقيد المجد مغترباً * وموزناً حسراتٍ ليس تفتقدُ

وقال يرثى عُمير بن الوليد :

أعيدى النوح معولة أعيدى * وزيدى فى بكائك ثم زيدى

وقومى حاسراً فى حاسراتٍ * خوامش للنحور وللخدود
هو الخطب الذى ابتدع الرزايا * وقال لأعين الثقلين جودى
ألا رزئت خراسان فتاها * غداة ثوى عُمير بن الوليد
ألا رزئت بمسئول مُنيلٍ * ألا رُزئت بملاف مُفيد
ألا إن الندى والجواد حلا * بحيث حللت من حُفير الصعيد
بنفسى أنت من ماكٍ رمته * منيتهُ بسهم ردًى سديد
تجلت غمرة الهيجاء عنه * خضيب الوجه من دمه الجسيد
فيابحر المنون ذهبت منه * ببحر الجود فى السنة الصلود
ويا أسد المنون فرست منه * غداة فرسته أسد الأسود
أبالبطل النجيد فتكت منه؟ * نعم ، وبقاتل البطل النجيد
تراءى للطعان وقد تراءت * وجوه الموت من حُمرٍ وسود
فيالك وقعة جللاً أعادتْ * أسى وصبابةً جلد الجليد
ويالك ساعة أهدت غليلاً * إلى أكبادنا أبد الأبيد
ألا أبلغ مقالتي الإمام الخليفة * والأمين بن الرشيد
بأن أميرنا لم يأل عدلاً * ونُصحاً فى الرعايا والجنود
أفاض نوال راحته عليهم * وسامح بالطريف وبالتليد
وأضحى دونهم للموت حتى * سقاه الموتُ من مقرٍ هبيد
وما ظفروا به حتى قراهم * قشاعم أنسرٍ وضباع بيد
بطعن فى نحورهم رشيقٍ * وضربٍ فى رءوسهم عتيد
فيا يوم الثلاثاء اصطبحنا * غداةً منك هائلة الورود
ويا يوم الثلاثاء اعتمدنا * بفقدٍ فيك للسند العميد
وكم أسخنت فينا من عيونٍ * وكم أعثرت فينا من جدود
فما زُجرت طيورك عن سنيحٍ * ولا طلعتْ نجومك بالسعود
ألا يا أيها الملكُ المُردى * رداء الموت فى جدثٍ جديد
حضرت فناء بابك واعترانى * شجى بين المخنق والوريد
رأيت به مطايا مهملاتٍ * وأفراساً صوافن بالوصيد

فكنت عتّاد . إما فك عانٍ * وإما قتل طاغيةٍ عنود
رأيتُ مؤمليك عدت عليهم * عوادٍ صعّدتهم فى كؤود
وأضحت عند غيرك فى هبوطٍ * حظوظ كُن عندك فى صُعود
وأصبحت الوفودُ إليك وقفًا * على أن لا مُفاد لمستفيد
فكلهم أعدّ اليأس وقفاً * عليك ونصّ راحلةَ القعود
لقد سخنت عيون الجود لما * ثويت وأقصدت غُرر القصيد

وقال يرثى محمد بن حُميد الطوسيّ :

كذا فليجل الخطب وليفدح الأمرُ * فليس لعينٍ لم يفضْ ماؤها عذرُ
تُوفيت الآمالُ بعد محمد * وأصبح فى شُغلٍ عن السفر السفرُ
وما كان إلا مال من قل مالهُ * وذُخراً لمن أمسى وليس له ذخرُ
وما كان يدرى المجتدى جود كفه * إذا ما استهلت ؛ أنه خُلق العسرُ
ألا فى سبيل الله من عُطلت له * فجاجُ سبيل الله وانثغر الثغر
فتى كلما فاضت عيون قبيلة * دماً ضحكت عنه الأحاديث والذكر
فتى دهرُه شطران فيما ينوبه * ففى بأسه شطرٌ وفى جوده شطر
فتى مات بين الضرب والطعن ميتةً * تقوم مقام النصر إذ فاته النصرُ
وما مات حتى مات مضربُ سيفه * من السّل واعتلتْ عليه القنا السمرُ
وقد كان فوتُ الموت سهلاً فردّه * عليه الحفاظُ المُرّ والخُلُق الوعرُ
ونفسُ تعافُ العار حتى كأنّه * هو الكفر يوم الروع أورونه الكفرُ
فأثبت فى مستنقع الموت رجله * وقال لها : من تحت أخمصك الحشرُ
غدا غدوةً والحمد نسج ردائه * فلم ينصرف إلا وأكفانهُ الأجرُ
تردى ثياب الموت حُمراً فما أتى * لها الليل إلا وهى من سندسٍ خُضرُ
كأن بنى نبهان يوم وفاته * نجوم سماء خرّ من بينها البدرُ
يُعزّون عن ثاوٍ تُعزى به العُلا * ويبكى عليه الجودُ والناسُ والشعرُ
وأنّى لهم صبر عليه وقد مشى * إلى الموت حتى استشهدا. هو والصبر!
فتى كان عذب الروح لا عن غضاضة * ولكن كبراً أن يكون له كبر

فتى سلبته الخيل وهو حمىً لها * وبزته نارُ الحرب وهو لها جمرُ
وقد كانت البيضُ المآثر فى الوغى * بواتر فهى الآن من بعده بُتْرُ
أمن بعد طىّ الحادثات محمداً * يكون لأثواب العلا أبداً نشرُ !
إذا شجرات العرف جُذت أصولُها * ففى أىّ فرعٍ يوجد الورقُ النضر !
لئن أُبغض الدهرُ الخؤون لفقده * لعهدى به ممن يُحب له الدهرُ
لئن غدرت فى الروع أيامُه به * لما زالت الأيام شيمتها الغدرُ
لئن ألبست فيه المصيبةَ طيئٌ * لما عُريت منها تميمُ ولا بكرُ
كذلك ما ننفك نفقد هالكاً * يشاركا فى فقده البدو والحضرُ
سقى الغيث غيثاً وارت الأرض شخصه * وإن لم يكن فيها سحابُ ولا قطرُ
وكيف احتمالى للسحاب صنيعةً * بإسقائها قبراً وفى لحده البحرُ
ثوى فى الثرى من كان يحيا به الثرى * ويغمرُ صرف الدهر نائله الغمرُ
مضى طاهر الأثواب لم تبقَ روضةٌ * غداة ثوى إلا اشتهت أنها قبرُ
عليك سلام الله وقفاً فإننى * رأيت الكريم الحُرَّ ليس له عمرُ

وقال يرثى إدريس بن بدر السامىّ :

دموعُ أجابت داعى الحزن هُمَّعُ * توصلُ منا عن قلوبٍ تقطعُ
عفاءُ على الدنيا طويلُ فإنها * تفرقُ من حيث ابتدتْ تتجمعُ
تبدّلت الأشياءُ حتى لخلتُها * ستثنى غروب الشمس من حيث تطلعُ
لها صيحةُ فى كل رُوحٍ ومهجةٍ * وليست لشىء ما خلا القلب تُسمعُ
أإدريس ضاع المجد بعدك كلهُ * ورأىُ الذى يرجوه بعدك أضيعُ
وغودر وجهُ العرف أسود بعدما * يُرى وهو كالبكر الكعاب تصنَّعُ
وأصبحت الأحزان لا لمبرةٍ * تُسلم شزراً والمعالى تودعُ
وضل بك المرتاد من حيث يهتدى * وضرت بك الأيام من حيث تنفعُ
وأضحت قريحات القلوب من الجوى * تقيظ ولكن المدامع تربع
عيون حفظن الليل فيك محرماً * وأعطينك الدمع الذى كان يُمنع
وقد كان يُدعى لابسُ الصبر حازماً * فأصبح يُدعى حازماً حين يجزعُ

وقالوا عزاءً : ليس للموت مدفعُ * فقلت : ولا للحزن للمرء مدفعُ
لإدريس يومُ ما تزال لذكره * دموعى وإن سكنتُها تتفرّع
ولما نضا ثوب الحياة وأوقعت * به نائبات الدهر ما يتوقع
غدا ليس يدرى كيف يصنع مُعدمُ * درى دمعه من وجده كيف يصنعُ
وماتت نفوس الغالبيْن كلهم * وإلا فصبرُ الغالبيين أجمع
غدوا فى زوايا نعشه وكأنما * قُريش قريش حين مات مُجمع
ولم أنس سعى الجود خلف سريره * باكسف بالٍ يستقيم ويظلعُ
وتكبيره خمساً عليه مُعالناً * وإن كان تكبير المصلين أربع
وما كنت أدرى ، يعلم الله ، قبلها * بأن الندى فى أهله يتشيع
وقمنا فقلنا بعد أن أُفرد الثرى * به ما يقال فى السحابة تُقلِعُ

هذا مأخوذ من قول مسلم :

فاذهب كما ذهبت غوادى مزنة * أثنى عليها السهل والأوعارُ
ألم تك ترعانا من الدهر إن سطا * وتحفظ من أموالنا ما نُضيع
وتبسط كفا فى الحقوق كأنما * أناملها فى البأس والجود أذرعُ
وتلبس أخلاقاً كراماً كأنها * على العرض من فرط الحصانة أدرعُ
وتربط جأشاً والكماةُ قلوبهم * تزعزع خوفاً من قنا تتزعزع
وأمنية المرتاد يحضرك الندى * فيشفع فى مثل الفلا فيشفعُ
فأنطق فيه حامدُ وهو مُفحَمُ * وأفحم فيه حاسدُ وهو مِصقَعُ
ألا إن فى ظفر المنية مهجةً * تظل لها عين العُلا وهى تدمعُ
هى النفس إن تبك المكارم فقدها * فمن بين أحشاء المكارم تنزعُ
ألا إن أنفا لم يعد وهو أجدعُ * لفقدك عند المكرمات لأجدعُ
وإن أمرًا لم يمس فيك مُفجعاً * بملحوده ، فى عقله ؛ لمفجعُ

وقال يرثى القاسم بن طوق بن مالك :

جوى ساور الأحشاء والقلب واغله * ودمع يضم العين والجفن هاملة

وفاجع موت لا عدو يخافه * فيبقى ، ولا يبقى صديقاً يجامله
وأى أخى عز وذى جبرية * ينابذه أو أى رام يناضله
إذا ما جرى مجرى دم المرء حكمه * وبث على طُرق النفوس حبائله!
فلو شاء هذا الدهر أقصر شره * كما قصرت عنا لهاه ونائله
سنشكوه إعلاناً وسراً ونيةً * شكية من لا يستطيع يقاتله
فمن مبلغ عنى ربيعة أنه * تقشع طل الجود عنها ووابله
وأن الحجا منها استطارت صدوعه * وأن الندى منها أُصيبت مقاتله
مضى للزيال القاسم الواهب اللهى * ولو لم يُزايلنا لكنا نزايله
ولم يعلموا أن الزمان يريده * بفجع ولا أن المنايا تُراسله

ومنهاً :

طواه الردى طى الرداء وغُيبت * فضائله عن قومه وفواضله
طوى شيماً كانت تروح وتغتدى * وسائل من أعيت عليه وسائله
فيا عارضاً للعرف أقلع مزنهُ * وياواديا للجود جفت مسايله

وقال يرثى محمد بن حُميد ويسمى قحطبة ، وقيل : قحطبة أخوه :

بأبى وغير أبى ـ وذاك قليلُ ـ * ثاو عليه ثرى النُّباج مهيلُ
خذلته أسرته كأن سراتهم * جهلوا بأن الخاذل المخذول
أكّال أشلاء الفوارس بالقنا * أضحى بهن وشِلوه مأكول
كُفىٌّ ، فقتل محمدٍ لى شاهدٌ * أن العزيز مع القضاء ذليل

ومنها :

هيهات لا يأتى الزمان بمثله * إن الزمان بمثله لبخيل
ما أنت بالمقتول صبراً إنما * أملى غداة نعيِّك المقتولُ

ومنها :

من ذا يحدث بالبقاء ضميره ! * هيهات ! أنت على الفناء دليلُ
ياليت شعرى بالمكارم كلها * ماذا ، وقد فقدتْ نداك ، تقول؟

ومنها :

يا يوم قحطبة لقد أبقيت لى * حُرقاً أرى أيامها ستطولُ
ليث لو ان الليث قام مقامه * لانصاع وهو يراعةٌ إجفيلُ
لما رأى جمعاً قليلا فى الوغى * وأولو الحفاظ من القليل قليلُ
لاقى الكريهة وهو مغمد روعه * فيها ولكن بأسه مسلولُ
ومشى إلى الموت الزؤام كأنما * هو من محبته إليه خليلُ

ومنها:

أضحت عراصُ محمد ومحمد * وأخيهما وكأنهن طُلولُ
أبنى حُميدٍ ليس أولَ ما عفاً * بعد الأسود من الأسود الغيلُ
مازال ذاك الصبر وهو عليكم * بالموت فى ظل السيوف كفيلُ
مستبسلون كأنما مهجاتهم * ليست لهم إلا غداة تسيلُ
ألفوا المنايا فالقتيل لديهم * من لم يُخل العيش وهو قتيلُ
إن كان ريب الدهر أثكلنيكم * فالموت أيضاً ميتُ مثكول

وقال يعزى مالك بن طوق :

أمالكُ إن الحزن أحلام حالم * ومهما تدم فالحزن ليس بدائم
أمالك إفراطُ الصبابة تارك * حناً واعوجاجاً فى قناة المكارم
تأمل رويداً هل تُعدنّ سالماً * إلى آدم أم هل تعد ابن سالم !
متى تُرْع هذا الموت عيناً بصيرةً * تجد عادلاً منه شبيهاً بظالم
فإن تك مفجوعاً بأبيض لم تكن * تشد على جدواه عقد التمائم
بفارس دُغمى وهضبة وائلٍ * وكوكب عتابٍ وحمزة هاشم
شجا الريح فازدادت حنيناً لفقده * وأحدث شجواً فى بكاء الحمائم

فمن قبله ما قد أصيب نبينا * أبو القاسم النور المبين بقاسم
وخبّر قيس بالجلية فى ابنه * فلم يتغير وجه قيس بن عاصم
وقال على فى التعازى لأشعث * وخاف عليه بعض تلك المآثم :
أتصبر للبلوى عزاءً وحسبةً * فتؤجر ، أم تسلو سلو البهائم؟
خُلقنا رجالاً للتجلد والأسى * وتلك الغوانى للبكا والمآتم
وأى فتى فى الناس أحرضُ من فتى * غدا فى خفارات الدموع السواجم
وهل من حكيم ضيع الصبر بعدما * رأى الحكماء الصبر ضربة لازم
فلا برحت تسطو ربيعة منكم * بأرقم عطافٍ وراء الأراقم
فأنت وصنواك الشقيقان إخوة * خُلقتم سَعوطاً للأنوف الرواغم
ثلاثة أركان ، وما انهد سؤدد * إذا ثبتت فيه ثلاث دعائم

وقال يرثى عُمير بن الوليد :

كف الندى أمستْ بغير بنان * وقناته أضحت بغير سنان
جبل الجبال غدت عليه ملمة * تركته وهو مهدم الأركان
أنعى عُمير بن الوليد لغارةٍ * بكرٍ من الغارات أو لعوان
أنعى فتى الفتيان غير مكذبٍ * قولى ، وأنعى فارس الفرسان
عثر الزمان ونائبات صروفه * بمُقيلنا عثرات كل زمان
لم يترك الحدثان يوم سطا به * أحداً نصول به على الحدثان
قد كنت حشو الدرع ثم أراك قد * أصبحت حشو اللحد والأكفان
شغلت قلوب الناس ثم عيونهم * مذمت بالخفقان والهملان
واستعذبوا الأحزان حتى إنهم * يتحاسدون مضاضة الأحزان
ما يرعوى أحد إلى أحدٍ ولا * يشتاق إنسان إلى إنسان
أأصاب منك الموت فرصةَ ساعةٍ * فعدا عليك وأنتما أخوان!
فمن الذى أبقى ليوم تكرمٍ * ومن الذى أبقى ليوم طعان!

وقال يرثى ابنا له :

كان الذى خفت أن يكونا * إنا إلـــى الله راجعـــونا

أمسى المرجـــّى أبو على * موســـــداً فى الثـرى يمينا
حين اسـتوى وانتهى شباباً * وحقق الرأى والظـــنونا
أُصبتُ فيـــه وكـان عندى * على المصــيبات لى مُعينا
كنت كثــــيراً به عزيزاً * وكنت صــبًّا بـــه ضنينا
دافعت إلا المنـــون عنه * والمرء لا يدفـــع المنونا
آخر عهــدى بـــه صريعاً * للموت بالـــداء مستكينا
إذا شكـــا غصـــةً وكرباً * لاحـــظ أو راجـع الأنينا
يدير فى رجعـــه لساناً * يمنعـه المـــوت أن يُبينا
يشخص طـــوراً بناظريه * وتارةً يُطـــبق الجفـونا
ثم قضـــى نحـبه وأمسى * فى جـــدثٍ للثرى دفينا
باشر بـــرد الـثرى بوجهٍ * قد كـــان من قبله مصونا
بعيد دارٍ قـــريب جارٍ * قد فـارق الإلف والقرينا
بنى ياوحـــــد البنينا * غادرتنى مفـــــرداً حزينا
هون رزئى بـك الرزايـــا * علىّ فى النـــاس أجمعينا
آليت أنساك مــــا تجلى * صبح نهــــارٍ لمصبحينا
وما دعا طـــائر هديلاً * ورجعـــت والــه حنينا
تصرف الدهـــر بى صُروفاً * وعاد لى شــــأنه شؤونا
وجز فى اللحـــم بل براه * واجتث من طلحتى فنونا
أصـاب مـــنى صميم قلبى * وخفتُ أن يقطع الوتينا
والمرء رهـــن بحـــالتيه * فشـــده مـــرةً وليـــنا

ومما قيل فى شواذ المرثى :

من ذلك :

ما قالته جليلة بنت مرة أخت جساس زوج كليب لما قتل أخوها جساس زوجها كليبا ،وكان نساء الحى لما اجتمعن للمأتم قلن لأخت كليب : رحلى جليلة عنك فإن قيامها فيه شماتة وعار علينا عند العرب ، فقالت لها : اخرجى عن مأتمنا ، فأنت أخت واترنا وشقيقة قاتلنا ، فخرجت وهى تجر أعطافها ، فلقيها أبوها مُرة فقال لها : ما وراءك يا جليلة؟ فقالت : ثُكل العدد ، وحزن الأبد ، وفقد حليل ، وقتل أخٍ عن قليل ، وبين ذلك غرس الأحقاد ، وتفتت الأكباد . فقال لها : أوَ يكفُّ ذلك كرم الصفح وإغلاء الديات ؟ فقالت جليلة: أمنيّة مخدوعٍ ورب الكعبة ، أبالبدن تدع لك وائل دم ربِّها !

قال : ولما رحلت جليلة قالت أخت كليب: رحلة المعتدى وفراق الشامت! ويل غداً لآل مرة ، من الكرة بعد الكرة ! وبلغ قولها جليلة فقالت : وكيف تشمت الحُرة بهتك سترها وترقب وترها ! أسعد الله أختى ، الا قالت : نفرة الحياء وخوف الأعداء ثم أنشأت تقول:

يا ابنة الأقوام إن لُمت فلا * تعجل باللوم حتى تسألى
فإذا أنت تبينت الذى * يوجب اللوم فلومى واعذلى
إن تكن أخت امرئ ليمت على * جزعٍ منها عليه فافعلى
جل عندى فعل جساس فيا * حسرتا عما انجلت أو تنجلى
فعل جساس على ضنِّى به * قاطع ظهرى ومدنٍ أجلى
لو بعين فُقئت عين سوى * أختها وانفقأت لم أحفل
تحمل العين قذى العين كما * تحمل الأم أذى ما تفتلى
إننى قاتلة مقتولةٌ * فلعل الله أن يرتاح لى
يا قتيلاً قوض الدهر به * سقف بيتى جميعاً من عل
ورمانى فقده من كثبٍ * رمية المصمى به المستأصل

هدم البيت الذى استحدثته * وبدا فى هدم بيتى الأول
يا نسائى دونكن اليوم قد * خصنى الدهر برزءٍ معضل
مسنى فقد كليب بلظىً * من ورائى ولظى مستقبلى
ليس من يبكى ليومين كمن * إنما يبكى ليوم ينجلى
درك الثائر شافيه وفى * دركى ثأرى ثكل المثكل
ليته كان دمى فاحتَلَبوا * درراً منه دما من أكْحَل

ولما مات معاوية بن أبى سفيان اجتمع الناس بباب يزيد فلم يقدروا على الجمع بين التهنئة والتعزية ، حتى أتى عبد الله بن همام فقال : يا أمير المؤمنين، أجزل الله أجرك على الرزية ، وبارك لك فى العطية ، وأعانك على الرعية ، فقد رزئت عظيما ، وأعطيت جسيما، فاشكر الله على ما أعطيت ، واصبر على ما رزيت ، فقد فقدت خليفة الله ، وأعطيت خلافة الله ، ففارقت جليلا ، وأعطيت جزيلا ، إذ قضى معاوية نحبه ، ووليت الرياسة ، وأعطيت السياسة ، فأورده الله موارد السرور ، ووفقك فى جميع الأمور

فاشكر يزيد فقد فارقت ذا مِقَةٍ * واشكر حِباء الذى بالملك حاباكا
أصبحت تملك هذا الخلق كلهم * فأنت ترعاهم والله يرعاكا
لارزء أعظم فى الأقوام قدعلموا * مما رزئت ، ولا عقبى كعقباكا
وفى معاوية الباقى لنا خلف * إذا نُعيت ولا نسمع بمنعاكا

ففتح للناس باب الرثاء وجروا على منواله .

وقال أبو نواس الحسن بن هانئ يعزى الفضل بن الربيع عن الرشيد ويهنئه بالأمين:

تعز أبا العباس عن خير هالك * بأكرم حى كان أو هو كائن
حوادث أيام تدور صروفها * لهن مساو مرة ومحاسنُ
وفى الحى بالميت الذى غيب الثرى * فما أنت مغبون ولا الموت غابن

وقال أبو تمام يرثى المعتصم ويهنئ الواثق :

ما للدموع تروم كل مرام * والجفن ثاكل هجعةٍ ومنام
يا حُفرة المعصوم تُربك مودَع * ماءَ الحياة وقاتل الإعدام
إن الصفائح منك قد نُضدت على * مُلقَى عظام لو علمتِ عظام
فتق المدامع أن لحدك حله * سكن الزمان وممسك الأيام
ومصرف الملك الجموح كأنه * قد زُمّ مصعبه له بزمام
هدمت صروف الدهر أرفع حائط * ضُربت دعائمه على الإسلام
دخلت على ملك الملوك رواقه * وتسربت لمقوم القوام
مفتاح كل مدينة قد أبهمت * غلقاً ومخلى كل دار مُقام
ومعروف الخلفاء أن حظوظها * فى حيز الإسراج والإلجام
أخذ الخلافة عن أسنته التى * منعت حمى الآباء والأعمام
فلسورة الأنفال فى ميراثه * آثارها ولسورة الأنعام
ما دام هارون الخليفة فالهدى * فى غبطة موصولةٍ بدوام
إنا رحلنا واثقين بواثق * بالله شمس ضحى وبدر تمام
لله أى حياة انبعثت لنا * يوم الخميس ، وبعد أى حمام
أودى بخير إمام اضطربت به * شعب الرجال وقام خير إمام
تلك الرزية لا رزية مثلها * والقسم ليس كسائر الأقسام

جاء منها :

نقض كرجع الطرف قد أبرمته * يابن الخلائف أيما إبرام
ما إن رأى الأقوام شمساً قبلها * أفلت فلم تعقبهم بظلام
أكرم بيومهم الذى ملكتهم * فى صدره وبعامهم من عام

ثم أخذ فى مدح الواثق .
وفى هذه الواقعة يقول ابن الزيات :

قد قلت إذ غيبوك واصطفقت * عليك أيد بالترب والطين
اذهب فنعم المعين كنت على الد * نيا ونعم الظهير للدين

لن يجبر الله أمة فقدت * مثلك إلا بمثل هارون

ومن أشد الرثاء صعوبة على الشاعر وأضيقه مجالاً أن يرثى امرأة أو طفلا. وقد أُخذ على المتنبى فى قوله يرثى أم سيف الدولة بن حمدان :

سلام الله خالقنا حنوط * على الوجه المكفن بالجمال

وقالوا : ماله ولهذا العجوز يصف جمالها ! ووبخه الصاحب بن عباد فى قوله فيها

رواق العز فوقك مسبطر * وملك على ابنك فى كمال

قال أبو الحسن على بن رشيق الأزدى فى كتابه المترجم بالعمدة وبالأغانى أيضاً : أشد ما هجّن هذه اللفظة وجعلها مقام قصيدة من الهجاء أنه قرنها «بفوقك» فجاء عملا تاما لم يبق فيه إلا الإفضاء . وإن يكن المتنبى أخطأ فى هذا فلقد أجاد فى غيره ، والفاضل من عدت سقطاته ، وحفظت هفواته وفلتاته، وانظر إلى قوله فى أخت سيف الدولة

يا أخت خير أخٍ يا بنت خير أب * كناية بهما عن أشرف النسب
أُجِلُّ قدرك أن تُدْعَىْ مؤنثةً * ومن يصفكِ فقد سماك للعرب

وقوله أيضا :

ولو كان النساء كمن فقدنا * لفُضلت النساء على الرجال
مشى الأمراء حوليها حفاةً * كأن المرو من زِفِّ الرئال(١)

ومن جيد ما رثى النساء به وأشده تأثيراً فى القلب وإثارة للحزن ؛ قول ابن عبد الملك ابن الزيات فى أم ولده :

ألا من رأى الطفل المفارق أمه * بعيد الكرى عيناه تبتدران
رأى كل أم وابنها غير أمه * يبيتان تحت الليل ينتجيان

(١) الزف : ريش النعام .

وبات وحيداً فى الفرش تحثه * بلابل قلبٍ دائم الخفقان

ومنها بعد أبيات :

ألا إن سجلا واحدا قد أرقته * من الدمع أو سجلين قد شفيانى
فلا تلحيانى إن بكيت فإنما * أداوى بهذا الدمع ما تريان
وإن مكاناً فى الثرى خط لحده * لمن كان من قلب بكل مكان
أحق مكان بالزيارة والهوى، * فهل أنتما إن عُجتُ منتظران؟
فهبنى عزمت الصبر عنها لأننى * جليدُ فمن بالصبر لابن ثمان
ضعيف القوى لا يعرف الأجر حسبة * يأتسى بالناس فى الحدثان
ألا من أُمنيه المنى وأُعدُّه * لعثرة أيام وصرف زمان
ألا من إذا ما جئت أكرم مجلسى * وإن غبت عنه حاطنى ورعانى
فلم أر كالأقدار كيف تُصيبنى * ولا مثل هذا الدهر كيف رمانى

وقال أبو تمام يرثى جارية له :

ألم ترنى خليت عينى وشانَهَا * ولم أحفل الدنيا ولا حدثانها
لقد خوفتنى النائبات صروفها * ولو أمّنتنى ما قبلتُ أمانها
وكيف على نار الليالى معرّسى * إذا كان شيب العارضَيْن دخانها
أصبت بخود سوف أغبر بعدها * حليف أسى أبكى زمانى زمانها
عنان من اللذات قد كان فى يدي * فلما مضى الإلف استردت عنانها
منحت الدمى هجري فلا محسناتها * أود ولا يهوى فؤادى حسانها
يقولون : هل يبكى الفتى لخريدةٍ * متى ما أراد اعتاض عشراً مكانها!
وهل يستعيض المرء من خمس كفه * ولو صاغ من حر اللجين بنانها !

وقال أبو الفتح كشاجم يعزى بابنته :

تأس بـــا أبـــا بكـــر * لمـــوت الحـــرة البكـــر
فقـــد زوجتهـــا القبـــر * وما كالقبـــر مـــن صهـــر

وعــــوضت بهـــا الأجـــر * ومــا كالأجــر مــن مهـــر
زفـــاف أهـــديت فيــــه * من الخـــدر إلــى القـــبر
فتـــاة أسبـــــغ الله * عليهـــا أفضـــل السّتـــر
ورزء أشبـــــه النعمـــ * ـــة فى المـــوقع والقَـدر
وقـد يُختـــار فى المكـــرو * ه للمـــرء ومـــا يـــدرى
فقـــابل نعمـــة الله * ومـــا أولاك مــن شكـــر
وعــــز النفـــس عمـا فا * ت بالتســليم والصبـــر

وقال أبو مروان بن أبى الخصال الأندلسى فى مثل ذلك :

ألا يا موت كنت بنا رءوفاً * فجددت الحياة لنا بزَوْرَهْ
حمدتُ لفعلك المأثور لمّا * كفيتَ مئونةً وسترتَ عَورهْ
فأنكحها الضريحَ بغير مَهْرْ * وجهّزْنا الفتاةَ بغير شَوْرَهْ

وقال أبو تمام حبيب بن أوس الطائىّ فى ابنين لعبد الله بن طاهر ماتا صغيرين فى يوم واحد من قصيدة :

نجمان شاء الله ألا يطلُعَا * إلا ارتدادَ الطرف حتى يأفُلا
إن الفجيعةَ بالرياض نواضراً * لأجَلُّ منها بالرياض ذوابلا
لو يُنْسآن لكان هذا غارباً * للمكرُمات وكان هذا كاهلا
لهفى على تلك الشواهد فيهما * لو أُمهلتْ حتى تكونَ شمائلا
لغدا سكونهما حِجًا وصباهما * حِلما وتلك الأرْيَحيّةُ نائلا
إن الهلالَ إذا رأيتَ نُمُوَّه * أيقنتَ أن سيكونُ بدرا كاملا

وقال أبو الحسن الأنبارى فى محمد بن بقية وزير عز الدولة بختيار بن معز الدولة بن بُوَيْه لما صَلَبه عضدُ الدولة بن رُكن الدولة بن بُوَيْه عند خلع بختيار ، وهى من نوادر المراثى :

عُلُوٌّ فى الحياة وفى الممات * لَحَقٌّ أنت إحدى المُعجزات

كأن الناس حولك حين قاموا * وفودُ نَدَاك أيامَ الصِّلاتِ
كأنك قائمٌ فيهمْ خطيبا * وكُلُّهمُ قِيامٌ للصَّلاةِ
مددتَ يديك نحوهمُ جميعا * كمدِّهما إليهمْ بالهِباتِ
ولما ضاق بطنُ الأرض عن أنْ * يَضُمَّ عُلاك من بعد المماتِ
أصاروا الجوَّ قبرك واستنابوا * عن الأكفانِ ثوبَ السافياتِ
لعُظْمك فى النفوس بَقِيتَ تُرْعى * بحُرّاس وحُفَّاظ ثِقاتِ
وتُشْعَلُ عندك النيران ليلاً * كذلك كنتَ أيام الحياةِ
ولم أر قبل جِذْعك قطُّ جذعاً * تمكَّنَ من عِناقِ المكرُماتِ
ركبت مطيةً . من قبلُ . زيدٌ * عَلاها فى السنين الذاهباتِ

أشار فى هذا البيت إلى زيد بن الحسن بن علىّ بن أبى طالب لما قُتِلَ وصُلِب فى أيام هشام بن عبد الملك .

ومما يدخل فى هذا الباب ويلتحق به : ما يطرأ من الحوادث التى تعم بها البلية ، وتشمل بسببها الرزية ؛ كاستيلاء أهل الكفر على بلد من بلاد الإسلام، وهزيمتهم لجيشه اللُّهام ؛ فمن ذلك ما كتب به القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانىّ إلى الأمير عز الدين سامة لما استعاد الفرنج ـ خذلهم الله تعالى ـ مدينة «بيروت» : ابتدأ كتابه بأن قال بعد البسملة : قال الله سبحانه فى كتابه العزيز مُسليا لنبيّه الكريم ﷺ : ﴿ وَإِن يُرِيدُوا خِيَانَتَكَ فَقَدْ خَانُوا اللَّهَ مِن قَبْلُ ﴾ فإذا كان من الناس من خان الله ورسوله ﷺ فكيف لا يخون الناس الناس! وأين المُوفون بعهدهم إذا عاهدوا ، والصابرون فى البأساء والضراء وحين البأس .

وقد كانوا إذا عُدُّوا قليلا * فقد صاروا أقل من القليل

والمولى ـ أعزه الله بنصره ، وعوّضه أحسن العوَض من أجره ، وكتب له ثوابَ تسليمه إليه وصبره ـ ليس بأوّل من وَثق بمن خان ، وقضيّةُ «بيروت» بأوّل مقدور قال الله له : كن فكان ؛ والقدر السابق لا يدفعه الهمّ اللاحق ، ومن الخَجَلات المستعارة خجْلة الواثق ، والموثوقُ به لائقٌ به الخجلُ الصادق ؛ ومعاذ الله أن ينكس المجلس رأسه حياء ، أو أن يَسْخط لله قضاء ، أو أن يأسف على مال نقله من مودَعه الذى لا يؤمَن من الآفات عليه ، إلى مودع الله الذى يحفظه إلى أن يأتيه به أحوج ما كان إليه ؛ والحمد لله الذى جعل مصائبنا فى الدنيا فوائدنا فى الأُخرى ؛ ثم الحمد لله الذى جعل البادرة للعدوان والعاقبة للتقوى . وقد علم الله أنى مُقاسمه ومُساهمه ، ومُضمرٌ من الهم بما اتفق من هذا المقدور ما مُقدّره عالمه ؛ غير أنه لا حيلة لمن لا حيلة له إلا الصبر ، وإن صبر جرى عليه القدر وجْرى له الأجر ، وإن لم يصبر جرى عليه القدر وكُتب عليه الوِزْر ؛ وكل ما ذهب من صاحبه قبل أن يذهب صاحبه فقد أنعم الله عليه ، حيث أخرج ما فى يديه وأبقى يديه ؛ والمال غاد ورائح ، والمال بالحقيقة هو العمل الصالح ؛ وإن اجتمع موصلها بحضرته فهو يُنْهِى ما عندى ، ويؤَدّى حقيقة ودّى ، ورأيه الموفَّق .

وقال المظفر الأبيوردى لما استولى الفرنج على البيت المقدس فى سنة اثنتين وتسعين وأربعمائة قصيدة منها :

مزَجْنا دماء بالدموع السواجم * فلم يبقَ منها عُرضة للمزاحم
وشر سلاحِ المرءِ دمعٌ يُفيضُه * إذا الحربُ شبّت نارُها بالصوارمِ
فإيها بنى الإسلام! إن وراءكم * وقائعَ يُلْحِقْن الذُّرى بالمناسمِ
أتهويمةً فى ظِلِّ أمْنٍ وغِبْطة * وعيش كنُوار الخميلة ناعمِ!
وكيف تنام العينُ ملْءَ جفُونها * على هَبَوات أيقظت كل نائمِ
وإخوانكم بالشأم يُضْحى مَقيلُهم * ظهورَ المذاكى أو بطونَ القشاعمِ
يسومُهمُ الروم الهوانَ وأنتمُ * تجرونَ ذيلَ الخفض فعلَ المُسالمِ
وكم من دماءٍ قد أُبيحت، ومن دُمى * تُوارِى حياءً حُسنها بالمعاصمِ
بحيث السيوفُ البيضُ مُحمرَّةُ الظبى * وسُمْر العوالى داميات اللهَاذمِ
وبين اختلاس الطعن والضرب وقفةٌ * تظلُّ لها الولدانُ شِيبَ القَوادمِ
وتلك حروب من يغب عن غمارها * ليسلم يَقْرَعْ بعدها سِنَّ نادمِ
سللنَ بأيدى المسلمين قواضبا * ستُغمد منهم فى الطُّلى والجماجمِ
يكاد بهن المُستجِن بطيبة * يُنادى بأعلى الصوت : يا آل هاشمِ
أرى أمتى لا يشرعون إلى العدا * رماحُهُمُ والدينُ واهى الدعائمِ
ويجتنبون النار خوفاً من العدا * ولا يحسَبون العارَ ضربةَ لازمِ
أترضى صناديدُ الأعاريبِ بالأذَى * وتُغْضِى على ذُلٍّ كماةُ الأعاجمِ!
فليتهم إذ لم يَذودوا حميةً * عن الدين ضنُّوا غَيْرةً بالمحارمِ
وإن زهدوا فى الأجر إذ حَمِسَ الوغى * فهلا أتَوه رغبةً في المغانمِ!
لئن أذعنت تلك الخياشيم للثرى * فلا عَطَسوا إلا بأجدع راغمِ
دعوناكُمُ والحربُ ترنُو مُلِحّةً * إلينا بألحاظ النسور القشاعمِ
تُراقِبُ فينا غارةً عربيّةً * تُطيل عليها الرومُ عَضّ الأباهمِ
فإن أنتمُ لم تغضبَوا عند هذه * رمتنا إلى أعدائنا بالجرائمِ

وقال علاء الدين عليّ الأوتاريّ الدمشقيّ فى مثل ذلك لما استولى التتار على دمشق فى سنة تسع وتسعين وستمائة :

لك علمٌ بما جرى يا سُهادى * من جفونى على افتقاد رُقادى
لم أجد عند شدتى مُؤنسا لي * غيرَ سُهْدى مُلازماً لسَوادى
وحبيبُ العين الرقادُ جفاها * مذ رآها حليفةَ الأنكاد
أحسن الله يا دِمَشْقُ عزاكِ * فى مَغانيك يا عِمادَ البلاد
وبرستاق نَيْرَبيك مع المـــ * ـــزة مع رونق بذاك الوادى
وبأُنس بقاسيونَ وناسٍ * أصبحوا مَغْنَماً لأهل الفساد
طرقتهم حوادثُ الدهر بالقتــ * ـــل ونهب الأموال والأولاد
وبنات مُحَجبَّات عن الشمـــ * ـــس تناءت بهن أيدى الأعادى
وقُصُور مُشَيَّدات تقضتْ * فى ذُراها الأيام كالأعياد
وبيوت فيها التلاوة والذكـــ * ـــر وعالى الحديث بالإسناد
حرّقُوها وخرّبوها وبادت * بقضاء الإله ربٌّ العباد
وكذا شارعُ العُقَيْبَة والقصـــ * ـــر وشاغورها وذاك النادى
أصبحوا اليوم مثل أمس تَقَضَّى * وبكتَهم سماؤُهم والغَوَادى
ولكم سورها حوى من مُعَنَّى * مُقْرَحِ القلب والحشى والفؤاد
إن بكى لا يُفيده أو تَشكَّى * وَجَدَ المُشْتَكَى حليفَ سُهاد
يشتكى فوق ما اشتكاه بأضعا * فٍ فيغدُو وهَمُّه فى ازدياد
فالغلا والجلا مع الجوع والعُرْ * ىِ ونهبِ الأقوات والأزواد
والحصارُ الشديدُ والحبسُ والخو * فُ مع السادة العُراة المكادى(١)
وبوزنِ الأموال من غير وُجْد * باعتساف الغُتم(٢) الغلاظ الشداد
كاتراقجا كير خوار أنت يا غيمـــ * ـــه لمحمود غازان قان البلاد(٣)

(١) المكادى : جمع «مكدى» اسم مفعول من كداه بمعنى حبسه .

(٢) الغتم جمع أغتم وهو من لا يفصح .

(٣) ورد هذا البيت هكذا بالأصل ، وقد سألنا عنه كثيرين من المشتغلين باللغة الفارسية فقيل لنا إن =

يا تُرى هل لكَرْبنا من مُجير * أم لتشديد أسْرنا من مُفادى
لهفَ نفسى على جُيوش تولَّت * ثم ولَّت جريحةَ الأكباد
كل نَدْب عَضْب حَمِىٍّ كَمِىٍّ * أمجدٍ أصْيدٍ شجاع جَواد
إن سطا فى هباته كان بحرا * أو سطا خلتَه من الآساد
أو بدا حاملا تَخَلْ عَنْتريا * أو عدا سابِق الجواد فغادى
إن أتانى مُبشّرٌ بلقاهم * حاز روحى ومُهْجتى وقيادى
ولثمت التراب شكْراً وعفر * ت خدودى على بلوغ مُرادى
لست أرجو غير البشير شفيعا * عند ربى فى المنّ بالإنجاد
فهو الصادق الذى وعد الديـ * ـن بنصر جارٍ على الآباد
غير أن الفسادَ يكسب ذُلا * ويُعَمّى الفسادُ طُرُقَ السداد
وارتكاب الفساد يُورث فقراً * وخرابُ البيوتِ عُقْبَى الفساد
يا حبيب الإلهَ لا تتَخَلى * عن عُصاة غمرتَهم بالأيادى
يا حبيب الإله قد مسنا الضـ * ـر فجُد بالإسعاف والإسعاد
يا حبيب الإله تُبْنا إلى اللـ * ـه وأنت العمادُ حتى المعَادِ
من لأسرى كسرى حيارى دهتهم * دهمتهم جِيادُ أهلِ العِنادِ
واضع اللقط فى الحساب عناه * - لو يعش - حصرُ كثرة الأعداد
منهمُ الطفلُ والصبيّةُ والشا * بّ يُنادى ، فمن يُجيبُ المنادى!
ويُنَادى عليهمُ برغيف * وبنزرٍ بَخْس بسُوق الكَساد
عُوِّضوا عن سرورهم بغرور * وقصور البلاد سُكنى البَوادى
وبأهل الوداد شرّ أُناس * وبلين المِهاد شوكَ القَتَاد
أىُّ عين عليهمُ ليس تبكى * أىُّ قلب عليهمُ غيرُ صادى!
فلأنت الرحيم قلبا ولُبًّا * ولأنت الهادى لسُبْل الرَّشاد
ولأنت البديعُ خَلْقا وخُلْقا * ولأنت السميع للإنشاد
ولأنت الطّرازُ فى كلِّ معنى * ولسيف المقال شبهُ النِّجاد
ولأنت الحاوى فُنُونَ صِفاتٍ * دون حصر لها فَنَاءُ المِداد

--- الفارسية فقيل لنا إن بعض ألفاظه فارسية ، وبعضها الآخر ظن أنه تترىّ ولم يدر ما هو .

ولأنت الممدوح من فوق عرشٍ * بعدُ ماذا يقول قُسٌّ الإيادى
جُلُّ قَصْدِ الفصيح بالنظم معنىً * نَشْرُ فضل الممدوح بين العبادِ
فإذا كانَ مُنْشِىءِ المدحِ ربِّى * عاد مدحُ الفصيح جمعَ سَوَادِ
فعليك الصلاةُ يرجو بها الأمــ * ـــن علىٌّ من سائر الأنكادِ

***

تم الكتاب . بحمدالله تعالى وعونه . وصلى الله وسلم وبارك ، على محمد ، وعلى آله وصحبه أجمعين .

مع تحيات /
شيماء أحمد حجازى السقا

فهرس كتاب

رثاء الأموات

***


المنصورة ت / ٢٢٣٣٨٦٧